

مجلة لسانيات العربية وآدابها

Arap Dilbilimi ve Edebiyatı Dergisi

Journal of Arabic Linguistics and Literature

E-ISSN: **2718-0468**

مجلة نصف سنوية دولية محكمة

International Refereed Biannual Journal /Uluslararası altı aylik hakemli dergi

Volume: 1, Issue: 2, December 2020 / Cilt: 1, Sayı: 2 Aralik 2020

المجلد (١) العدد (٢) ديسمبر ٢٠٢٠



مجلة لسانيات العربية وآدابها

Arap Dilbilimi ve Edebiyatı Dergisi

Journal of Arabic Linguistics and Literature

E-ISSN: 2718-0468

مجلة نصف سنوية دوليــة محكمــة

International Refereed Biannual Journal /Uluslararası altı aylik hakemli dergi

Volume: 1, Issue: 2, December 2020 / Cilt : 1, S a y 2 :1 Aralık 2020

المجلد (١) العــدد (٢) ديسمبر ٢٠٢٠



ḌÂD

مجلة لسانيات العربية وآدابها

Arap Dilbilimi ve Edebiyatı Dergisi

Journal of Arabic Linguistics and Literature

E-ISSN: 2718-0468

دورية (نصف سنوية) دولية محكمة، تعنى بالبحوث والدراسات المهتمة باللغة العربية وآدابها، بمختلف تخصصاتها المعرفية ومناهجها البحثية، وكذلك بالدراسات المعنية بتعلمها وبتعليمها لأبنائها ولغير الناطقين بها.

An international (semi-annual) journal dealing with research and studies interested in Arabic language and literature, with its various knowledge disciplines and research curricula, as well as studies concerned with its education to its parents and non-native speakers.

Çeşitli bilgi uzmanlık alanları ve araştırma yöntemleriyle Arap Dili ve Edebiyatı'yla ilgilenen çalışma ve araştırmaların yanı sıra ana dili Arapça olan ve olmayanlarin Arapça eğitimi ve ögrenimiyle ilgilenen uluslararası, hakemli ve altı aylık süreli yayın.

E mail / E Posta / البريد الإلكتروني

daad@daadjournal.com

info@daadjournal.com

daaddergisi@gmail.com

Website / Web sitesi / الموقع الإلكتروني

www.daadjournal.com

Advisory Board / Danışma Kurulu / الهيئة العلمية والاستشارية

Advisory Board / Danışma Kurulu / الهيئة العلمية والاستشارية

Reviewers of this İssue / Sayının Hakemleri / هيئة تحكيم العدد



مجلة لسانيات العربية وآدابها

Arap Dilbilimi ve Edebiyatı Dergisi

Journal of Arabic Linguistics and Literature

E-ISSN: 2718-0468

İÇİNDEKİLER /CONTENTS/ المحتويات

أبعاد العلاقة بين اللغة العربية والهوية الحضارية
مقاربة لسانية اجتماعية

د. العياشي ادراوي

أستاذ التعليم العالي جامعة محمد الأول، وجدة، المغرب

البريد الإلكتروني: ayachidra69@gmail.com

معرف (أوركيد): 0000-0003-1885-6846

الاستلام: ٢٥-١٠-٢٠٢٠ القبول: ١٢-١٢-٢٠٢٠ النشر: ٢٧-١٢-٢٠٢٠

الملخص:

يتوخى هذا البحث معالجة إشكال اللغة والهوية انطلاقا من اقتناع أساس قوامه التأكيد على العلاقة الوثيقة الجدلية الموجودة بين المفهومين (اللغة/ الهوية) في مختلف الأبعاد وعلى صعيد كافة المستويات؛ ثقافيا وحضاريا واجتماعيا وتاريخيا، ومن ثم العمل على نقض التصور الانغلاقي التقليدي للغة الذي جسدته أساسًا الفلسفات الصورية/ المنطقية والتوجهات اللسانية المنغلقة (اللسانيات الصلبة) وفي مقدمتها البنيوية على عكس التصور المنفتح - وهو المتبنَّى في البحث - الذي يتعاطى مع اللغة من حيث كونها نسقًا مفتوحًا (open system) يتأثر بما يحيط به ويؤثر فيه، ومن ثمة يُتجاوز النظر إلى اللغة على أنها أداة تواصل فقط إلى كونها منتجة للثقافة والحضارة، وصانعة للهوية وما يرتبط بها من قيم ورموز وعادات وسلوكات، وغير هذا مما لا يمكن أن يوجَدَ - الوجود الحقيقي- إلا ضمن جماعة بشرية حية.

الكلمات المفتاحية:

اللغة العربية، الهوية، الحضارة، المجتمع، الثقافة، لسانيات اجتماعية، الأمن اللغوي.

Dimensions of the Relationship Between Arabic Language and Civilized Identity, Sociolinguistic Approach

Dr. Elayachy Draoui

Assistant Professor, University Mohammed first. Oujda, Morocco.

E-mail: ayachidra69@gmail.com

Orcid ID: 0000-0003-1885-6846

Received: 25.10.2020 Accepted: 12.12.2020 Published: 27.12.2020

Abstract:

This research aims to address the issue of language and identity based on a conviction based on the emphasis on the close dialectical relationship that exists between the two concepts (language / identity) in various dimensions and levels; Culturally, socially and historically. Consequently, working to overturn the traditional closed perception of language, which was mainly embodied by formal / logical philosophies and closed linguistic trends (hard linguistics), primarily the structural ones that called for treating language in itself and for its own sake without any other social, cultural, cognitive or other considerations, in contrast to the perception. The extrovert perception - that is adopted in the research - that deals with language in terms of being an open system, influenced by what surrounds it and affects it. From there, it goes beyond viewing language as a tool of communication only to being a producer of culture and civilization, and a maker of identity and the associated values, symbols, customs and behaviors, and other things that cannot exist - real existence - except within a living human community as well.

Keywords:

Arabic language, identity, civilization, society, culture, sociolinguistics, linguistic security.

Arap Dili ile Medeni Kimlik Arasındaki İlişkinin Boyutları Sosyolinguistik Bir Yaklaşım

Dr. Öğr. Üyesi Draoui Elayachy

Mohamed Premier Üniversitesi , Oujda , Fas

E-posta: ayachidra69@gmail.com

Orcid ID: 0000-0003-1885-6846

Geliş: 25.10.2020 Kabul: 12.12.2020 yayın : 27.12.2020

Özet:

Bu araştırma, dil-kimlik problemini, temeli iki kavram arasında çeşitli boyutlarda ve kültürel, medeni, sosyolojik ve terihsel düzeylerde var olan sıkı diyalektik ilişkiyi vurgulayan bir kanaatten hareketle incelemeyi amaçlamaktadır. Sonrasında, esas olarak biçimsel/mantıksal felsefelerin ve başında dili diğer herhangi bir sosyal, kültürel, bilişsel veya bunlar dışındaki düşüncelerden bağımsız olarak kendi içinde ve kendisi için incelemeye çağıran Yapısalcılığın geldiği kapalı dilbilimsel yönelimlerin somutlaştırdığı geleneksel kapalı dil algısı çürütülmeye çalışılacaktır. Yapısalcılık, bu çalışmada dil ile ilgili benimsenen ve onun çevresinde olanlardan etkilenen ve onu etkileyen açık bir sistem olması bakımından ele alan açık algının tersidir. Burada, dili sadece bir iletişim aracı olarak görmenin ötesine geçilir ve daha önce zikredildiği gibi onun kültür ve medeniyet üreticisi, kimliğin ve onunla ilgili değerlerin, sembollerin, adetlerin, davranışların ve canlı beşerî bir toplum dışında gerçek anlamda var olması mümkün olmayan diğer olguların yaratıcısı olduğu görüşüne yükselinir.

Anahtar Kelimeler:

Arap Dili, Kimlik, Medeniyet, Toplum, Kültür, Sosyolinguistik, Dil Güvenliği.

تقديم:

إذا عُلم أن اللغة هي البؤرة التي يتمركز عليها نسيج أية أمة، كائنة ما كانت، وينبني عليها، وأنَّ بين اللغات والمجتمعات تفاعلًا بنيويًا عميقًا، بحيث إن تكوين الإنسان ثقافيا لا يحصل في استقلال عن اكتمال اللغة نَسقِيًا (والعكس صحيح)، وما يترتب عن هذا من وجود تفاعل مستديم بين نظاميْن؛ أحدهما ثقافي اجتماعي والآخر رمزي لغوي، إذا عُلم ذلك تأكد معه أن اللغة – أية لغة- تصح بالاستعمال السليم وتتقوى حتى تسود على غيرها، كما أنها تضعف بالإهمال إلى درجة الانقراض وفسح المجال لغيرها؛ فتضعف الهوية الموصولة بها والجماعة (أو الأمة) الحاملة لها مهيّئةً الظروف لشتى ضُروب الاختراق، وصنوف الغزو؛ المعنوي والمادي، الفكري والحضاري.

على هذا الأساس فإن ما يطرأ على اللغة من تغيرات وتحولات سلبًا أو إيجابًا، ينعكس بشكل مباشر على هوية الناطقين بتلك اللغة، مثلما أن ما يعتري هوية جماعة ما من تشوهات واختلالات يظهر على مرآة هذه الجماعة ويصرَّف فكرا وثقافة وحضارة. لذا فإن أي نزوع لحفظ الهوية وصيانتها، أو إثرائها وإغنائها على غير أساس لغوي لن يكون إلا القصور حليفه. وعليه فإن من أهم الأمور التي تتوجّب على الإنسان العربي اليوم تعزيز حضوره الفعال وتثبيت هويته الخاصة به في ساحة المعترك الفكري الحقيقي الذي يعيشه العالم، وبالتحديد معترك الصراع بين الثقافات والحضارات والتدافع بين اللغات والهويات.

ضمن هذا الإطار العام يروم هذا البحث - استنادًا إلى منهج تفكيكي تحليلي- معالجة إشكال اللغة والهوية انطلاقا من اقتناع أساس قوامه التأكيد على العلاقة الوثيقة الجدلية الموجودة بين المفهومين (اللغة/ الهوية) في مختلف الأبعاد وعلى صعيد كافة المستويات؛ ثقافيا وحضاريا واجتماعيا وتاريخيا. وبالتالي العمل على نقض التصور الانغلاقي التقليدي للغة الذي جسدته أساسًا الفلسفات الصورية/ المنطقية والتوجهات اللسانية المنغلقة (اللسانيات الصلبة) وفي مقدمتها البنيوية التي دعت إلى معالجة اللغة في ذاتها ولذاتها بمعزل عن أية اعتبارات أخرى اجتماعية كانت أو ثقافية أو معرفية أو

غيرها، على عكس التصور المنفتح – وهو المتبنى في هذا البحث - الذي يتعاطى مع اللغة من حيث كونها نسقًا مفتوحًا (open system) يتأثر بما يحيط به ويؤثر فيه. ومن ثمة يُتجاوز النظر إلى اللغة على أنها أداة تواصل فقط إلى كونها – كما سبق البيان- منتجة للثقافة والحضارة، وصانعة للهوية وما يرتبط بها من قيم ورموز وعادات وسلوكات؛ أي باعتبارها اللغة المرتكز الأساس الذي تنبني عليه هوية الأمة وفكرها وتاريخها.

١- تحولات مفهوم اللغة بين اللسانية "الصلبة" واللسانيات "المرِنَة"

لعل ما ميز البحث اللغوي في نطاق اللسانيات التقليدية (اللسانيات الوصفية، اللسانيات المحايثة، لسانيات الجملة) تركيزه على بنيات اللغة أساسًا، أي النظر إلى اللغة من حيث هي نظام وليس باعتبارها سلوكًا، بما يجعلها تشكل – حسب هذا التصور- نسقا متكاملا منغلقا تمام الانغلاق عن العالم الخارجي، ومن ثمة فإن المقاربة الأكفى في هذا الإطار هي تلك التي تركز على اللغة في ذاتها ولذاتها بعيدا عن أية اعتبارات خارجية مرتبطة بالمحيط أو السياق، أو المقاصد، وما شابه ذلك (على نحو ما كانت تقضي النظرة الوضعانية للعلوم حينها)، لكن ما لبث بعد ذلك أن تبين مدى تهافت هذا التصور وقصوره في التعاطي مع سؤال اللغة وقضايا الخطاب لأنه لا يمكن بلوغ تفسير وفهم سليميْن للغات والخطابات بدراستها وهي منعزلة عن السياقات التخاطبية والتواصلية الفعلية.

وعلى هذا الأساس فقد أضحى الارتباط الوثيق بين اللغة من جانب، والواقع الإنساني والتفكير البشري من جانب آخر، من المسلمات التي لا تقبل المراجعة. لذا لم تعد هذه المنظومة اللسانية منعزلة ولا منغلقة على ذاتها، تتراوح مهمتها بين نقل الخبر وتحقيق المعنى، بل أصبحت نظاما تواصليا ثقافيا، ونسقا اجتماعيا، وتعبيرا عن الوجود الإنساني، بل وتحقيقا لهذا الوجود الاجتماعي والثقافي في العالم. في هذا الإطار نجد مثلا نُورْمانْ فيرْكْلافْ (Norman Fairclough) يَعُد اللغة جزءا من الحياة الاجتماعية لا يمكن اختزاله، إذ بينها وبين عناصر الحياة الاجتماعية الأخرى

علاقة منطقية جدلية تجعل من الضروري أن يأخذ البحث والتحليل الاجتماعي اللغة بعين الاعتبار [1].

ومع تطور الاجتهادات اللسانية وما يسندها من علوم مجاورة تبين أن عزل اللغة عن الفكر والواقع، أي دراستها في ذاتها ومن أجل ذاتها، بات مفتقدًا لأي مبرر علمي أو تفسير موضوعي، خاصة بعد انتشار النظريات التداولية التي فتحت أفق البحث واسعا أمام مجال الفعل الإنساني بما ينطوي عليه من مؤهلات ذاتية تطلق لدى الفرد حرية المبادرة والإبداع، استنادا إلى ما يراكمه من تجارب فردية ومعارف موسوعية ووقائع خارجية تنقل هذا الفرد من مجال الكلام والأقوال إلى ميدان الإنجاز والأفعال، وهو انتقال لا يتم بشكل اعتباطي عفوي بل إنه محكوم بجملة من القواعد اللسانية والمنطقية والنفسية الاجتماعية، والقيمية الجمالية، والثقافية وغيرها [2].

ارتباطا بهذا اتضح بشكل ملموس، مع منتصف القرن الماضي تحديدا، العجز الكبير للعديد من المقاربات والنظريات اللسانية - خاصة التركيبية والدلالية منها - عن ملامسة تلك الأبعاد الاجتماعية والثقافية والنفسية للغات الطبيعة (ordinary languages)، بالنظر إلى تركيزها المبالغ فيه على الجوانب البنيوية النسقية للخطاب في مقابل الإهمال شبه التام لمنتج الخطاب ومتلقيه، وبيئة إنتاجه وأفق تلقيه وقراءته وتأويله، ودونما استحضار أيضا لعناصر المجال التداولي للتخاطب، من مقام وتفاعل وتَذاوُتٍ وتعاون واستلزام، وغير ذلك ([3]). الأمر الذي حتم البحث عن مقاربات ذات أصول مغايرة ومنطلقات مختلفة بإمكانها تقديم أجوبة كافية لما استجد من قضايا،

---

(١) سعيد النكر، "التداوليات واللغة الطبيعية"، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد ٥، ٢٠١٤، ص١٠٣. ونُورْمانْ فيرْكلفْ (Norman Fairclough)، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ترجمة طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩، ص ٢٣-٢٨.

(٢) عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦، ص٧.

(٣) سعيد النكر، مرجع سابق، ص١٠٣.

لذلك برزت تصورات تستحضر أبعادا أخرى في الخطاب مثل السياق والقصد والذات، وغيرها من المفاهيم ذات البعد التداولي الاستعمالي [١].

وتبقى اللسانيات الاجتماعية واللسانيات التداولية – بما هي دراسات تختص بوصف وتفسير العلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها وبين الدالين بها – أهم الاجتهادات اللسانية التي تستحضر تلك الأبعاد وتُعنى بها. وغني عن البيان ها هنا أن هذا الفرع المعرفي عمل على استثمار وتطوير العديد مما طرحته النظريات اللسانية وتيارات فلسفة اللغة والأبحاث المنطقية من مبادئ ومناهج وآليات للتفسير والتأويل، لكونها ظهرت في زمن تزايد الاهتمام فيه بالظواهر التخاطبية والآليات التواصلية وبالأنساق المنطقية ذات الأبعاد الطبيعية، الشيء الذي أدى إلى خلق نقط تلاقي كثيرة بين نظريات من أصول مختلفة وحقول متباينة، كالمنطقيات واللغويات وعلم النفس والفلسفة وغيرها من المجالات العلمية التي تَغَيتْ جميعها الكشف عن مختلف العمليات التخاطبية والتفاعلات الحوارية والحجاجية المرتبطة باللغة، كما بالذوات المتخاطبة وبالواقع التداولي الخارجي والقيم الإنسانية والاجتماعية، وما سوى هذا مما يشكل أساس الاستعمال اللغوي عامة ومركز اهتمام البحث التداولي خاصة [٢]. لذلك فإن من أبرز مهام هذا التوجه في البحث اللساني دراسة اللغة عند استعمالها في مستويات مقامية مختلفة؛ أي باعتبارها كلاما محددا صادرا عن متكلم محدد وموجها إلى مخاطب محدد، بلفظ مخصوص وفي مقام تواصلي مخصوص لأجل تحقيق غرض معين.

ومعنى هذا أنه في إطار هذا التصور للغة من حيث هي نظام مفتوح (open system) لا يكون الخطاب إلا بين متكلم ومخاطَب، ولا يكون إلا لدواعٍ، ولا يكون إلا لمقاصد، ولا يكون إلا في إطار زماني ومكاني وشروط تواصلية (ثقافية وفكرية

(١) حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٤، ص ١٢٢.

(٢) سعيد النكر، مرجع سابق، ص١٠٤.

وأيديولوجية) هي ما يُعبر عنه بعناصر السياق والمقام بمعنييْه الخاص والعام [1]. فهذه العناصر مجتمعة هي ما تمده بهويته "الخطابية" وتحدده بما هو كذلك. لذا فإن مما يدخل في نطاق اهتمام البحث الاجتماعي والتداولي أيضا دراسة الشروط التي تضمن النجاح والفعالية والمناسبة لكل استخدام لغوي، ومدى مطابقة كل ذلك للبنية العامة للخطاب [2].

٢- اللغة في بُعديْها الاجتماعي والثقافي

إذا كانت اللسانيات التقليدية عامة ولسانيات الجملة خاصة، كما أسسها سوسير (١٩١٦) قد حددت نطاق اشتغالها وعملت على ضبط تخومه المتمثلة في اللغة (la langue) بوصفها نسقًا محايثا قائما ومستقلا بذاته -كما سبقت الإشارة- فإن التساؤل الذي يُثار من زاوية النظر اللساني التداولي - الذي يتجاوز مستوى اللغة إلى أفق الخطاب والتخاطب- هو الكَيْف المعرفي الذي تم به ذلك الحصر، على اعتبار أن تجريد اللغة من واقع الممارسة الحية استنادا إلى إجراءات نظرية تجريدية يُفضي إلى التعاطي مع "شيء" مجرد فارغ من محتواه الحقيقي، وفاقد لطبيعته الأصلية الأمر الذي يضر بجوهر اللغة وحقيقة الخطاب على مستوى التمثل كما على مستوى الممارسة.

ولهذا "فإن الوقوف عند الطبيعة الحية للممارسة اللغوية لا يتم إلا بإدراجها في محيط العلاقات الاجتماعية والأيديولوجية. وأية محاولة لاختزال اللغة إلى بُعْد من الأبعاد المتصلة بعملية إنتاج الأصوات وتلقيها (البعد الفيزيائي أو الفزيولوجي أو غيرهما) إلا ويضيع معها جوهر الموضوع المدروس؛ أي طبيعته السميائية والأيديولوجية، مما يدل على أن الطبيعة الخصوصية للممارسة اللغوية لا يمكن أن تتحدد إلا داخل شبكة العلاقات الاجتماعية المتفاعلة". وإلى هذا المعنى يذهب صاحب كتاب "اللغة والسلطة" حيث يؤكد على أنه "من المهم الوقوف على جوانب الأحوال الاجتماعية للخطاب وكيف تتحكم الهياكل الاجتماعية فيه؛ أي كيف يخضع

---

(١) إدريس مقبول، الأفق التداولي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١١، ص١.

(٢) باديس الهويمل، مظاهر التداولية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١٤، ص٣٩.

الخطاب الفعلي لأعراف الخطاب الكامنة في المجتمع. وهذه الأعراف تتشكل في مجموعات أو شبكات يُطلق عليها نظام الخطاب. وإلى جانب ذلك فإن هذه الشبكات ونُظُم الخطاب تجسد أيديولوجيات معينة" (١).

فاللغة تبعا لذلك لا تظهر خصائصها الحقيقية إلا من خلال المنجز التلفظي في وضع اجتماعي معين. يقول باختين في هذا الصدد :" إذا كان من اللازم لملاحظة عملية الاحتراق وضع جسم (مادي) في الوسط المناخي، فالشيء نفسه كذلك بالنسبة إلى ظاهرة اللغة إذْ من اللازم وضع الذوات المرسلة للصوت والمتلقية له، وكذلك الصوت نفسه في الوسط الاجتماعي" (٢). وهذا يعني، من ضمن ما يعنيه، أنه يستحيل تصور أي وجود حقيقي لظاهرة اللغة خارج مكون أكثر شمولا وأكثر حيوية هو المكون الاجتماعي بانتظامه وديناميته وفعاليته، إذْ بالاندماج في هذا المركب العام تحقق اللغة فاعليتها التواصلية وقيمتها التخاطبية. لكن ما تجب الإشارة إليه في هذا السياق أن النظر إلى اللغة على أساس حقيقتها تلك، أي باعتبارها "ممارسة" مختلفة الأبعاد متعددة المكونات لا يمكن أن يكون ذا جدوى إلا إذا تم حصْر كل ما يرتبط بظاهرة التبادل اللغوي في عنصر مشترك يتمثل في "العملية التخاطبية"، بحكم أن "مكونات التخاطب المختلفة من مقام ومتكلمين ومستمعين لا توجد خارج المخاطبات وإنما تقوم داخلها، لذلك تشكل المخاطبة بمقتضى إضمارها لشروط إنتاجها الموضوع الشامل لدراسة العمليات التخاطبية"(٣).

فكل مخاطبة إنما تقتضي – بحكم طبيعتها- علاقة بين متكلم ومستمع؛ أي علاقة توجهها محددات تفاعلية وأخرى اجتماعية لأن الخطابات، كائنة ما كانت، ومهما

---

(١) محمد الحيرش، "تداوليات التخاطب عند ميخائيل باختين"، مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد ٩، ١٩٩٩، ص١٦١. ثم نورمان فيرْكلفْ، اللغة والسلطة، مرجع مذكور، ص ٤٩.

(2) M ; Bakhtine ;(1929) ; Le marxisme et la philosophie du langage ;tr.fr ; Minuit. 1977. P :72-73 .

(٣) محمد الحيرش، "تداوليات التخاطب عند ميخائيل باختين"، مرجع مذكور، ص١٦٢.

كانت المقامات والسياقات التي تقترن بها تبقى موجهة نحو الآخر، أي نحو مستمع محدد حتى ولو كان من حيث وجوده الواقعي غير حاضر.

ولهذا فإن اللغة – حسب ما تقتضي به تداوليات التخاطب- ليست، بأي حال من الأحوال، معطى مجردا ثابتا يُستند في دراسته إلى نظام من القواعد القارة، وإنما هي نتاج الحياة الاجتماعية، أو لنَقُل إنها سيرورة من الدينامية المواكبة لدينامية الحياة الاجتماعية والثقافية وتطورها، ولذلك فهي لا تتجسد في علاقات مجردة ومعزولة وإنما في علاقات التواصل الاجتماعي التي ينشئها كل فرد مع أقرانه، وعليه "من المستحيل أن نفهم كيف تنبني المخاطبة، وإنْ بدا لنا مظهرها الخارجي مستقلا ومنتهيا، ما لم نعانيها بوصفها لحظة ما، قطرة بسيطة داخل هذا السيل من التواصل الكلامي الذي تكون حركته المتواصلة هي نفسها حركة الحياة الاجتماعية والتاريخ"[1].

ويترتب على هذا أمران أساسيان، أولهما أن كل مخاطبة إلا وتوجد مقترنة بشكل من أشكال التواصل الحي. وثانيهما أن المخاطبة ذاتها، إذا نُظر إليها على أنها ظاهرة لغوية صرفة ومنعزلة، لا يمكن أن تكون لا صادقة ولا كاذبة، ولا جريئة أو محتشمة، ومن ثمة فإنه لا إمكان لتقويمها إلا وهي موصولة بسياقات واقعية ومقامات حية. ومتى تبين ذلك تبين معه أيضا أن كل ملفوظ (énoncé) أو خطاب يصير شكلا من أشكال التخاطب الحي الذي يتعين مقاربته باستحضار مختلف العناصر المكونة له والمتمثلة في المظهر اللغوي، وعلاقة المتخاطبين فيما بينهم، والمقام[2] وغير هذا.

هكذا إذن يبدو أنه بعد تراجع اللسانيات ذات النزعة الصورية المغلقة ظهرت ونمت نظريات لسانية وظيفية ومعرفية رأت في اللغة الأساس المتين الذي يقوم عليه فكر الأمة وتاريخها، مثلما برزت مناهج جديدة في معالجة اللغة الإنسانية تجعل هوية

---

(١) المرجع السابق. ص١٦١.

(٢) نفسه، ص١٥٧-١٦٣.

الناطقين بتلك اللغة مركز اهتمامها واشتغالها[١]. مما يعني أن الهوية أضحت تشكل الجزء الأهم في أية دراسة تجرى حول اللغة إذا ما أريد للنظرية اللغوية أن تتطور وتُعاد إليها نزعتها الإنسانية (Rehumanization). فاللغة – حسب هذا الطرح الاجتماعي والأيديولوجي- هي الأساس الصلب الذي تنبني علية هوية الأمم والشعوب وتصاغ وفقه قصة حضارتها، على اعتبار أن الهوية – كما سنوضح في الصفحات القادمة- هي مفهوم ذو دلالة لغوية لسانية من جهة، وحضارية ثقافية من جهة أخرى.[٢]

إن البحوث المنجزة في أكثر من حقل معرفي في العلوم الإنسانية والاجتماعية أضحت تؤكد أن اللغة ليست مجرد نظام من العلامات الدالة يصف العالم وإنما وظيفتها أكبر وأعمق من ذلك بكثير؛ فهي تقوم بدور الوسيط الذي يتدخل في تحديد تصرفات الفرد وأنماط سلوكه وتكوين رؤيته وتصوره للعالم، وتحديد علاقاته بأفراد مجتمعه وبالآخر، فضلا عن تأثيرها في نشاطه ومعتقداته وحياته ووعيه[٣]. وعلى هذا الأساس فالإنسان لا يرى إلا ما تريه لغته، كما أن كل جماعة لغوية تنظر إلى العالم من خلال لغتها وتدرك أشياءه وحقائقه استنادا إلى لسانها.

٣- الهوية بين الثبات والتغيُّر

يعد مفهوم الهوية من المفاهيم التي طرحت وما زالت تطرح إشكاليات نظرية ومنهجية غاية في الصعوبة والتعقيد سواء من حيث تمثلها على مستوى الوعي أو تعريفها من المنظور الاصطلاحي، وأيضا من حيث توظيفها في سياق التحليل والدراسة، ذلك أن الهوية هي المفهوم الذي يرمز ويوحي أكثر مما يفصح ويُظهر، ومعانيه ودلالاته الإيحائية أكثر قوة وثراءً من معناه الحرفي المباشر. ويظهر ذلك في

(١) عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي السياسي، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ص: ١٩٧- ١٩٩.

(٢) جون جوزيف، اللغة والهوية، ترجمة عبد النور خراقي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٣٤٢، ص: ٧-٨.

(3) Thomson, John B. "Langage et Idéologie". Langage et société. No : 9, mars 1987. P :8.

الاستعمالات المعاصرة مثلما يبدو في التحديدات التراثية. يعرف محمد بن علي الجرجاني – مثلا- باعتبارها "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"[١]. وتكمن قيمة هذا التحديد –بالنسبة إلينا على الأقل- في كونه يجعل مفهوم الهوية منفتحا على فضاء الممكن والمحتمل وليس على الاكتمال والانغلاق بما يعني أنها يمكن أن تشتمل على كل ما يمكن أن تسمح به الكيانات الفردية والجماعية استنادا إلى أصول ومبادئ ثابتة مما يجعلها مفتوحة متفاعلة - على الدوام - على ما سوف يأتي[٢]، ليس على سبيل الرفض والتأثر السلبي وإنما على سبيل الحوار والتفاعل الإيجابي المفضييْن إلى تطوير هذه الهوية وإغنائها وإعادة تموقعها في إطار السياقات الجديدة والمتغيرات الطارئة دونما انفصال عن الأسس والمبادئ أو تفريط في الأصول والجذور الثقافية والحضارية والدينية واللغوية وغيرها التي تشكل جقيقة الهوية وجوهرها.

لذا ليس غريبا أن نجد جل المعاجم العربية تربط مفهوم الهوية بمعنى "العمق". فقد جاء في الصِّحاح على سبيل المثال لا الحصر "هوى يَهْوِي هويًا أي سقط إلى أسفل... وأهوى إليه بيده ليأخذه. والهوة: الوَهْدَةُ العميقة. والأُهْويةُ مثلها. والمهوى والمهواة: ما بين الجبلين. وتهاوى القوم في المِهْوَاةِ: إذا سقط بعضهم في إثر بعض"[٣]. وإلى المعنى نفسه يشير صاحب لسان العرب حيث يقول: "الهوية من هوى يهوي هوة. والهوية تصغير هوة. وقيل الهوية بئر بعيدة المهواة؛ أي الحفرة البعيدة القعر"[٤]. وبناء عليه فإن تجريد مفهوم الهوية من هذا البعد (المتمثل في الدلالة على العمق) يجعل المفهوم يفقد معناه الحقيقي ومن ثمة لا يغدو دالًا إلا على صورة شكلية

(١) علي بن محمد بن علي الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق عادل أنور خضر، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٧، ص: ٢٢٤.

(٢) الحسين الزاوي، الهوية وفلسفة اللغة العربية، مندى المعارف، بيروت، لبنان، ٢٠١٤، ص: ١٣-١٤.

(٣) الصحاح، ج٢، ص: ٢٦٠.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٢، ص: ١٧٠.

من صور الهوية أو على مكون بسيط من مكوناتها في أحسن الأحوال. خاصة إذا علمنا أن معنى الهوية المتعارف عليه اجتماعيا وحضاريا يشير إلى أنها "ما به يكون الشيء هو هو؛ أي من حيث تشخُّصه وتحققه في ذاته وتميزه عن غيره. إنها وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري ومحتوى لهذا الضمير في الآن نفسه بما يشمله من قيم وعادات ومقومات تكيف وعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على كيانها".[(١)]

وهذا يعني – من ضمن ما يعنيه- أن الحفاظ على الهوية يكون بطريقين اثنين على الأقل؛ أولهما توطيد الانتماء إلى الجماعة (الشعب أو الأمة) والإخلاص لها، وثانيهما التميز عن الآخر والاختلاف عنه لأن الانتماء لا يتحدد إلا بالآخر المختلف. وتبعا لهذا فإن الهوية بطبيعتها لا يمكن أن تُفهم بعيدا عن علاقتها مع الآخر المختلف المغاير. وبقدر ما تعبر الهوية عن نفسها من خلال اللغة والخطاب فإنها في الآن نفسه تنفتح على الآخر من خلال هذه اللغة. لذا يستحيل تمثل دلالة الهوية وفهم أبعادها ورهاناتها المختلفة من دون استحضار للغيرية بوصفها تمثل الوجه الآخر للهوية. فليست هناك هوية في ذاتها ولا حتى لذاتها وحسب، وإنما هي دوما علاقة بالآخر[(٢)]، بما يعنيه ذلك من فاعلية تواصلية وكفاءة حوارية وقدرة على الإسهام والتفاعل وما إلى هذا مما يدل على أن مفهوم الهوية لا يمكن أن يحدَّد على أساس الثبات والتجانس أو الانغلاق والتطابق بل على العكس من ذلك لا يعرَّف إلا باعتباره مفهوما ينبني في جوهره على الاختلاف والتغيّر والانفتاح وإعادة التشكيل، وغير هذا مما يساهم في إعادة تشكيل للهوية على نحو يقويها وينمّيها ويرتقي بها مع إبعادها في الآن نفسه عما يضعفها ويقوضها. يقول عبد السلام المسدي في هذا الإطار: "إن الهوية في مفهومها الشامل قيمة جوهرية في حياة الإنسان بوصفه كائنا ثقافيا قبل أن يكون كائنا بيولوجيا.

---

(١) عبد الغني عماد، الهوية والمعرفة - المجتمع والدين، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ٢٠١٧، ص: ١٣٩.

(٢) الحسين الزاوي، الهوية وفلسفة اللغة العربية، مرجع مذكور، ص: ١٠٣.

وجوهر الهوية الانتماء، وهو الذي يفارق به الإنسان آدميته الغريزية مرتقيًا إلى آدميته المتسامية. والانتماء مضمون وإبلاغ؛ فأما المضمون فعقيدة تكفل له الإيمان وتقيه شر الضياع في الوجود. وأما الإبلاغ فلغةٌ تؤَمن له التواصل الإنساني الخلاَّق. فإذا توافقت دائرة الإيمان ودائرة اللسان كان الانتماء للتاريخ وكان الاستشراف للمآل"[١]. فالتوافق إذن بين الإيمان واللسان أو لنقل التوافق بين ممارسة الدين وتفعيل التواصل ينمّي الهوية ويجعلها تنفتح على مزيد من الترقي والتسامي ومن ثمة تزداد رسوخا وقوة يَقيانها أسباب الانحطاط من جانب، وتزداد –من جانب آخر- توسعًا وامتدادًا يمكنانها من بسط أبعادها المختلفة بحيث تستوعب أكثر العناصر الممكنة[٢].

وإذا تبين هذا تبين معه أن الهوية ليست ما يتم تذكره والمحافظة عليه والدفاع عنه فكل ذلك موجود محقق مسلم به، وإنما هي بالأحرى ما ننجزه ونحسن أداه؛ أي ما نصنعه بأنفسنا وبالعالم من خلال علاقاتنا ومبادلاتنا مع الغير. وعليه فإذا كانت ثمة من مشكلة في هويتنا اليوم فهي حتما ليست في اكتساح العولمة وغزو الآخر لنا – وإن كان ذلك جزءا من المشكل- وإنما هو في عجز أهل هذه الهوية عن تقويتها وإعادة ابتكارها وتشكيلها في سياق الأحداث والمجريات؛ أي في عجزهم عن عولمة هويتهم وأَعْلَمَة اجتماعهم وحوسبة اقتصادهم وعقلنة سياساتهم وكَوْنَنَة فكرهم ومعارفهم وما سوى هذا مما هو مؤجل القيام به وتحقيقه. لذا ف"الرهان هو تظهير صورة جديدة للهوية؛ معنىً ومعاشًا، نظريةً وممارسةً، تسهم في إخراجها مخرجا أكثر قوة وغنى وفاعلية من خلال شبكة جديدة من المفاهيم كالانبناء والتكوين والصناعة والتنمية والتواصل أو التداول وغير ذلك من المفاهيم والتعاملات التي تعطي الأولوية للغة المفهومية والعقلية التواصلية والاستراتيجيات العملانية والتحويلية على أدلوجات الوعي وتقديس الذات وعلى عقلية الطوبى والاستلاب أو على منطق المطابقة

(١) عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي: دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، ٢٠١٤، ص: ١١٣.

(٢) طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦، ص: ١٧٩- ١٨٠.

والمحافظة"[١]. ولا شك أن مثل هذا المفهوم المنفتح للهوية (أي من حيث هي ما لم نَكُنْهُ به) هو الذي يفتحنا على استشراف المستقبل ومجابهة التحديات وإعادة رسم الأهداف لتحقيق نهضة هوياتية على كافة المستويات؛ حضاريا ولغويا وثقافيا وإعلاميا واقتصاديا.

٤- في الصِّلة بين الهوية واللغة

بيْن اللغة والهوية ترابطٌ قوي وتفاعل مستمر في السلوك الفردي كما في السلوك الاجتماعي للناس داخل الأوطان والبلدان بحيث يؤثر كل منهما في الآخر إيجابًا وسلبًا، قوةً وضعفًا؛ فإذا قويت الهوية قويت معها اللغة وإذا ضعفت الهوية ضعفت اللغة كذلك لأن اللغة هي على الدوام تعبير عن الهوية وانعكاس لها في الواقع. إن اللغة من حيث هي الأداة المثلى في قيام التواصل بين أفراد المجتمع وتحقيق الاندماج داخله تبقى الوسيلة الأساس لبناء الهوية وتحديدها والتعرف على الذات وتمييزها. فاللغة تبعا لهذا مكون أساس من مكونات الهوية في كل أمة أو بلد أو وطن، بل إن الهوية مفهوم ذو دلالة لغوية واجتماعية وثقافية، يعني الإحساسَ بالانتماء إلى أركان الهوية التي هي الدين والثقافة والاجتماع. أما اللغة فهي الناطق الرسمي بلسان الهوية ووسيلة إدراك العالم وتصنيف المجتمعات. ونظرا إلى خطرها وشموليتها فهي مسؤولية كل الجهات التي تكوّن عناصر المجتمع، لأن اللغة هي الهوية ذاتها التي نحوّل بها المجتمع إلى واقع، وثقافة الأمة كامنةٌ في لغتها، كامنةٌ في معجمها ونحوها وتراكيبها ونصوصها. وما مِن حضارة إنسانية إلا ورافقتْها نهضة لغوية، وما مِن صراع بشري إلا ويخفي داخله صراعا لغويا. فالهوية إذن هي نتاج المعاني والقيم التي

(١) علي حرب، حديث النهايات؛ فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص: ٢٥.

يوجدها الأفراد عبر اللغة، والطابع الخاص لأي مجتمع هو نتيجة تفاعل ما يجري في نطاقه من خطابات لغوية وتفاعلات لسانية[١].

وعلى هذا الأساس فإن كيان الأمة وهيئتها وسَمْتُها ليس إلا مجموع المبادئ المنتزعة من أثَر اللغة والدين والعادات والرصيد الثقافي والميراث الحضاري. أما اللغة فهي ذات الحظ الأوفر في إبراز صورة وجود الأمة وكشف أفكارها ومعانيها، بل ليُمكن القول إن اللغة هي وجود الأمة ذاته[٢]. لذا فإن مما تتميز به اللغة البشرية – كائنة ما كانت- أنها نسق زمزي وُجد أصلا لحمل نسخة للعالم الثقافي الذي يقترن بمجتمع لغوي ما من جهة، ولتناقل هذه النسخة بين الأجيال المتعاقبة تاريخيا، وكذلك بين الفئات المتزامنة اجتماعيا وثقافيا من جهة أخرى[٣].

وذلك يعني من بين ما يعنيه أن اللغة ليست أداة تعبير وتواصل فقط وإنما هي أيضا بوابة الإنسان الرئيسة نحو إدراك العالم، لأن العالم هو بدايةُ ذلك الفضاء المادي والرمزي الذي تشكله اللغة. لذا كما يقول أهل النسبية اللغوية (positivism linguistic) "لغتي هي عالمي وحدود لغتي هي حدود عالمي". فبها تستطيع الأمة أن تكون موجودا حضاريا، مستقلة بذاتها متميزة عن غيرها، تتحدد عناصر وجودها ذاك استنادا إلى وجودها داخل لغة تعبر من خلالها عن رؤاها الموصولة بهذا العالم[٤]. "إن الإنسان – على حد تعبير فِلْهم هومبولت- ليس إنسانًا (كما أن الأمة ليست أمة) إلا بفضل

(١) عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي والسياسي، مرجع مذكور، ١٩٤. ونبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٢٦٥، ٢٠٠١، ص: ٢٢٨.

(٢) عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي والسياسي، ص: ٢٠٣.

(٣) محمد الأوراغي، التعدد اللغوي وانعكاساته على النسيج الاجتماعي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠٠٢، ص: ٢٧-٢٨.

(٤) الحسين الزاوي، الهوية وفلسفة اللغة العربية، مرجع مذكور، ص: ٤٣.

اللغة"[١]. وبالنظر إلى القيمة الحضارية للغة بالنسبة للأمم والشعوب سيذهب هومبولت بعيدا إلى حد التأكيد عى "أن اللسان هو الأمة عينها، وبالمعنى الحصري هو الأمة بشكل فعلي. إذ ماذا يعني اللسان إن لم يكن ذلك التألق والازدهار الذي تصبو إليه كل الطبيعة الجسمانية والروحية للإنسان"[٢].

إن اللغات والألسن إذن هي في حقيقتها رؤى عن العالم بالمعنى الذي يدل على أنه إزاء فرد ينتمي إلى جماعة لسانية ما فإن اللسان يحافظ على قدر من الوجود المستقل، وأنه عندما يكبر هذا الفرد في نطاقه فإن اللسان يدخله في اللحظة نفسها في إطار نوع من العالم ونوع من السلوك نحو العالم. والعالم، كما يقول غادمر (Gadamer)، ليس عالما إلا من منطلق أنه يعبر عن نفسه من خلال لسان ما. وليس ذلك فقط، بل إن اللسان هو كذلك لا يتحقق وجوده الفعلي إلا من منطلق أن العالم يجسد حضوره داخله. ومؤدى هذا أنه لا حديث ممكن عن إدراك العالم من قبل الفرد ومن قبل الجماعة إلا باستحضار معطى اللغة، وخاصة اللغة الأم. فاللغة – حسب الأبحاث المعرفية والاجتماعية الحديثة- تمثل المعطى الأول الذي يوجه كل التنظيم الخاص بإدراك وفكر الإنسان. وهو الذي يحدد، تبعا لذلك، رؤيته للعالم وتمثله له. فالإنسان لا يفهم العالم ويتفكر فيه بواسطة اللغة فحسب، بل إن رؤيته للعالم وطريقته في العيش والتصرف ضمن هذه الرؤية محددتان مسبقا بواسطة اللغة[٣].

وكما هو واضح فإن هذه القضايا مستوحاة من أطروحات "سابيرْ-وُورْفْ" (Sapir and Whorf) وطريقة تصورهما للوظيفة الأصلية للغة. فهذه الوظيفة، كما سبق البيان، تتجاوز حدود التعبير والتواصل لكي تحدد مجمل تصوراتنا عن الكون وأشكال وجوده وتجلياته. من منطلق أن ما نعرفه عن العالم وكيفية ذلك، وأنماط توزيع المضامين

(1)Wilhelm von Humbolt, Sur le caractère national des langues et autres écrits sur le langage, présenté, traduit et commenté par Denis Thouard, Paris, seuil, 2000, P :85.

(٢) المرجع نفسه، ص: ١٢٥.

(٣) الحسين الزاوي، الهوية وفلسفة اللغة العربية، ص: ٤٤-٤٧.

عمليات تتم داخل اللغة ومن خلال آلياتها في التقطيع المفهومي وصياغة حدود الفضاء والزمان. فاللغة هي الأداة الوحيدة التي تمكن الإنسان من القيام بذلك[١]. لذا تمثل بذرة الكينونة الأولى وأقدم تمظهرات الهوية وتجلياتها، فكأن العلاقة بين اللغة وأهلها الناطقين بها علاقة وجود وكينونة يتحقق الوجود الحضاري والثقافي بها ويمتنع بعدها. وعلى هذا الأساس فاللغة تبقى دائما عنوانا أو جذرا مؤسسا لوجود الأمة وهويتها من حيث هي مستودع أمين يختزن مقومات الانتماء وملامح الذات ومقومات الثقافة لتحفظ أصحابها من الذوبان في الآخر والانصهار في الغير أثناء التفاعل الثقافي والإنساني[٢]، وبالتالي تجنبهم الوقوع في الاستلاب الحضاري الذي ينبني - أول ما ينبني عليه- على "الاستلاب اللغوي".

٥- الاستلاب اللغوي والاستلاب الحضاري

إن اللغة – كما سبق التوضيح- تشكل أساس الأمة وقوتها ووحدتها ومرآة حضارتها، فهي الوعاء الذي يستوعب فكرها وثقافتها، وهي السلك الذي ينظم ما أنتج شعب من نفائس وصور، وهي الجسر الذي تعبُر عليه التجارب الإنسانية من جيل السلف إلى جيل الخلف، وهي الصورة الثابتة لثروات الأمة الفكرية والحضارية والدينية، وهي أيضا المقوم الصلب الذي لا تقوم حضارة أمة أو ثقافة شعب دون أساس ثابت منه. لذا فرُقي لغة من اللغات هو عنوان رُقي أصحابها، كما أن انحطاط لغة من اللغات هو عنوان انحطاط أصحابها كذلك[٣]. وبالنظر إلى هذا كله فإنه لا أمل في تقوية المناعة الحضارية للأمة والحفاظ عليها إلا بتقوية مناعتها اللغوية على اعتبار أن أي ضعف أو اختراق يصيب جسمَ لغةِ الأمة يصيب كيان الأمة وحضارتها برمتها.

---

(١) سعيد بنكراد، "استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة"، مجلة علامات، العدد ٢١، ٢٠٠٤، ص: ١٣.

(٢) علي فريد، "اللغة والهوية بين الاستلاب الحضاري واستعادة الوعي"، دراسة منشورة على شبكة الأنترنيت بتاريخ: ١٢ نونبر ٢٠١٨. (www.ruyaa.com)

(٣) محمد الربداوي، دراسات في اللغة والأدب والحضارة، القسم الأول، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٨٠، ص: ٧-٨.

لذا نجد –مثلا- مَنْ تكالبوا ويتكالبون على الأمة العربية الإسلامية وحضارتها لا يتوانوْا في استهداف لغتها، بشكل مباشر أو غير مباشر، ويسعون جاهدين لإضعافها وتغيير نظرة أهلها إليها مُزعزعين ثقتهم بها من خلال محاولة زرع الشك في نفوسهم في قدرة اللغة العربية على القيادة الحضارية ومواكبة تطورات العلم والتقنية ومسايرة التحولات الكونية التي تفرضها الحضارة المادية المعاصرة.

ففي إطار الصراع الحضاري الدائر اليوم يعتمد الاستعمار اعتمادا كبيرا على اللغة في إخضاع الشعوب المستعمرة واختراقها. لذا نجده يبذل المال والطاقات البشرية، ويشيد المعاهد والمراكز الثقافية من أجل نشر لغته وتقويتها وتثبيتها، في مقابل القضاء على اللغات المحلية من خلال تهميشها وإضعافها. وعندما ينجح في ذلك يطمئن لِوَلَاءِ فئة عريضة من النخبة المثقفة في البلاد المستعمرة ونيابتها عنه في قيامها بالمهام التي يفترض أن يقوم هو بها دون أية خسارة مادية أو معنوية، ودون حملات عسكرية أو أساليب حربية، ما دام هناك سلاح أشد قوة وأكثر فتْكًا وهو اللغة." فباللغة إذن يتمكن الغازي من هزيمة الشعوب فكريا، ويتحكم في مصائرها، ويفرض عليها نمطه الفكري الحضاري، ويحولها من أصولها الحضارية إلى أمة ذات حضارة هجينة وحياة مصطنعة بعيدة كل البعد عن المنابع الفطرية التلقائية لهويتها"[(١)].

ولعل ما يؤكد هذا – على سبيل المثال لا الحصر- تنامي اللغة الأجنبية في المجتمعات العربية (تعليما وإعلاما واقتصادا وإدارة) وتراجع اللغة العربية. وإحلال تلك محل هاته إنما يعبر عن أمرين خطيريْن أساسييْن أصابا الذات الحضارية العربية، أولهما الشعور بالهزيمة أمام لغة الآخر وثقافته وفكره. وثانيهما الوقوع فيما يسمى بالاستلاب الحضاري الذي يعني اهتزاز الثقة في قدرة الذات القومية على اللحاق بركب الآخر المتقدم المتفوق حضاريا، ومن ثمة يلجأ إلى استعارة النموذج الحداثي

(١) إدريس بوكراع، "اللغة والحضارة"، ضمن كتاب: لغة التدريس والنموذج التنموي؛ أية علاقة؟، منشورات مركز البحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية، وجدة، المغرب، ط١، ٢٠١٠، ص: ١٠٦.

الذي شيده هذا الآخر من خلال استيراد واستنساخ آلياته وأدواته وفي مقدمتها اللغة والتعليم.

فاستنادا إلى هاتين الأداتين استطاع الآخر (الأوروبي والأمريكي تحديدا) أن يخضع الشعوب العربية المسلمة لسياسات تربوية وتعليمية تعزز سلطانه واستيطانه، وتنال من القيم الإيمانية والأخلاقية والحضارية التي تحملها ثقافات هذه الشعوب. وبفضل هذه السياسة اللغوية التعليمية الاستعمارية "تمكن هذا المتسلط الكوني من أن ينشئ من أبناء هذه الشعوب نخبًا أُشرب أفرادها في قلوبهم ثقافتَه القائمة على النظر المُلْكي لا النظر الملكوتي. حتى إذا رحل عن أراضيهم تولَّوا عنه تثبيت هذه الثقافة المنفصلة بين ذويهم ومواطنيهم، وذلك بحجة أنها تضمن لهم التقدم الحضاري الذي افتقدوه في ثقافتهم الأصيلة التي قامت، في اعتقادهم، على نظر ملكوتي (ديني/ الإيماني) يضر بكل تقدم. ولم يَقنَع هذا "الغازي" بإنشاء تلك النخب من المثقفين المنفصلين التي تنوب عنه في سابق مستعمراته ولو من غير تفويض مباشر منه، بل أيضا خلّف وراءه مدارس البعثات الأجنبية التي ما فتئت تتعدد وتتوسع وتخرّج المزيد من ذوي الثقافة المنفصلة، هذا مع ممارسة لِأَلْوان من الضغوط على أصحاب القرار والنفوذ في هذه الأوطان الإسلامية لكي يستمروا في سلوك نهجه التثقيفي الانفصالي"[١] الذي يسعى، ما وسعه الجهد، لتدمير مقوماتها الحضارية وقيمها الثقافية ومرتكزاتها الفكرية وعلى رأسها اللغة والدين أُسَّا الحضارة العربية الإسلامية.

٦- الهوية العربية وسؤال الأمن اللغوي

كما سبقت الإشارة في الصفحات السابقة أنه من المسلمات الثابتة عند المشتغلين بالفكر الإنساني عموما والفكر اللساني خصوصا أن اللغة هي الوعاء الأوفى الذي يحفظ قيم الأمة الفكرية والروحية والفنية ومنجزاتها العلمية، كما أنه يعكس مرتبتها على سلم الحضارة الإنسانية تميزا أو انحطاطا. وتُضاف إلى هذا مسلمة أخرى وهي

(١) طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٥، ص: ٨٢-٨٣.

"أن غلبة اللغة بغلبة أهلها، وأن منزلتها بين اللغات صورة لأمتها بين الأمم"، كما يرى ابن خلدون. ومعنى هذا أنه لا تفاضل في الأصل بين اللغات، ولا تمايز بينها في حد ذاتها؛ بحيث توصف – مثلا- إحداها بالقوة وتوصف الأخرى بالضعف، أو يُنظر إلى لغة بعين الإجلال والتعظيم لثرائها وانفتاحها، وإلى ما سواها بعين الاستخفاف والتحقير لفقرها وانغلاقها.

بناء على هذا يبدو جليًا التلازم القائم بين اللغة (كائنة ما كانت) وأهلها الناطقين بها. إنها تضعف بضعفهم وتقوى بقوتهم، بل إنه لا قوة لهم إلا بتقوية اللسان الدال عليهم وجعله علامة مميزة لهم دون سواهم. وعليه فلا أمن لهذه الأمة أو تلك، ولا استمرارية - في التاريخ الإنساني- لهذا الشعب أو ذاك إلا بحفظ اللسان وتأمين اللغة. وعلى هذا يؤكد شاعر صقلية "إجنازيو بوتيتا" بالقول:"إن الشعوب يمكن أن تُكبَّل بالسلاسل وتُسد أفواهها وتُشَرد من ديارها فتظل مع ذلك غنية موجودة. إن الشعب يفتقر ويستعبد ما أن يسلب اللسان الذي تركه له الأجداد؛ عندئذ يضيع إلى الأبد"[(١)].

واضح إذن أن الأمن اللغوي مقدَّم على غيره من أنواع الأمن الأخرى كالأمن السياسي والاجتماعي والغذائي وغيرها من المقومات الحياتية التي توليها الدول والحكومات رعاية واهتماما خاصين. بل إنه ليجوز القول إن تأمين اللسان أساس لما سواه، لارتباطها به وانبنائها عليه من حيث هو شرط وجود الهوية وعامل صونها وتطورها. وعلى هذا الأساس فإن المطالبة بأمن لغوي يحفظ الكيان العربي ويزيل التشوهات التي لحقت الهوية العربية ضرورة تقتضيها السياسة اللغوية التي يجب أن تستنبت في تربة المجتمعات الناطقة بلغة الضاد.

فكما أنه لا بقاء للأمة العربية مثلا إلا بوجود أنظمة سياسية وأجهزة عسكرية حديثة وباقتصاد قوي متطور، وبتعليم عصري وإبداع وابتكار متميزيْن، فكذلك لا وجود حقيقيا لما ذُكر إلا في ظل لغة أصيلة نقية، ولسان متين حصين وليس مخترقا من

(١) جابر عصفور، التنوع البشري الخلاق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨، ص: ٢٠٠.

خارجه (أو داخله)، مكتفيا بذاته غير تابع لسواه ولا مرهون بغيره، وما يتبع ذلك من مناعة واستقلال لغويين. فالتفريط في اللغة الأم تفريط في السيادة والهوية.

إن الواقع يؤكد أن هناك تهديدا للأمن اللغوي العربي، وهو تهديد ليس جديدا وإنما يعود- على الأقل- إلى الفترة الاستعمارية ليتجدد منذ مطلع العقدين الأخيرين من القرن الماضي مع انتشار الفضائيات ووسائط الاتصال وفتح العديد من الجامعات والمدارس الأجنبية في البلاد العربية، ومن ثمة سيادة الثقافة الغربية تحديدا. الأمر الذي جعل بعض المستشرقين المتعصبين، وحتى بعض المتخاذلين من أبناء العروبة، يرون أن اللغة العربية قد دخلت خانة اللغات الموات التي أتى عليها الدهر وأنه ينبغي أن تنزوي لتفسح المجال للغات "الحية المتطورة" أو اللهجات العامية التي يجب أن تصير لغة التعبير والتفكير المثلى. فاللغة العربية عند هؤلاء عاجزة قاصرة عن استيعاب الرموز الثقافية والتطورات العلمية. لذا فمصيرها –حسب هذا التوجه- التلاشي والانقراض كنظيرتها اللاتينية. فما جرى على هذه من القانون الطبيعي يجري حتما على العربية.

وغير خافٍ أن هذه المعاداة والتحامل على لغة الضاد راجعان أساسا إلى "فكر الاحتلال" وإلى مواقف عدد من الباحثين الأجانب الذين قرَنوا اللسان العربي بالتخلف وعدّوا لغتهم لغة العصر والعلوم التي يتعين هجر العربية إليها، وربطوا العامية بالحياة والسهولة والمرونة فيما الفصيحة بالموت والصعوبة والاستعصاء، وطعنوا في الحرف العربي ومجّدوا الحرف اللاتيني وأرادوا أن تُكتب به الفصيحة والعامية على السواء[1]. وما من شك أن الحملة على اللغة العربية هي حملة على كل شيء يعنينا – نحن العرب المسلمين- وعلى كل تقليد من تقاليدنا الثقافية والاجتماعية والدينية كما على الفكر والوعي. وتبعا لهذا فإن الحاجة إلى أمن لغوي عربي اليوم أكثر إلحاحًا من أي زمن آخر، كما أنه مطلب، الكل مدعو لتحقيقه، ومشروع الجميع مطالب بالإسهام فيه

(١) المرجع نفسه. ص:٩٦.

صيانةً وتقويةً للهوية –كما سبق البيان– من ناحية، واستئنافًا للفعل التنموي والنهضة الحضارية وتعزيزهما من ناحية أخرى.

٧- نحو منظور مغاير للتعريب

إن المتابع لجملة من الدراسات المنجزة في موضوع التعريب يلاحظ أنها دراسات تدور في الغالب الأعم حول الجانب اللغوي الصرف، من قبيل الحديث عن صعوبات التعريب وإشكالات المصطلح، وقضايا قدرة اللغة العربية على التعبير عن مستجدات العلم الحديث، وما شابه هذا. ويحدث أن تخرج بعض الاجتهادات عن نطاق التوجه اللغوي المحض لتقارب البعد الثقافي والحضاري والتنموي لمسألة التعريب من حيث هو عامل أساسي للحفاظ على هوية الحضارة العربية الإسلامية واستمراريتها. وسواء نظرنا إلى قضية التعريب من هذه الزاوية أو تلك فالملاحظ أن الغاية تكاد تكون واحدة وهي التعاطي مع التعريب من حيث هو إنجاز لغوي، غاية في ذاته لا وسيلة لغايات أسمى، أي لا تتجاوز البعد اللغوي الخالص إلى أبعاد أخرى اقتصادية واجتماعية وقانونية وسياسية على سبيل المثال لا الحصر[١].

ولهذا فإن ما نهدف إليه في هذا المقام هو النظر إلى مسألة التعريب وفق رؤية تنموية اقتصادية، أي باعتبار التعريب ضرورة اقتصادية ذات أثر مباشر في التنمية والإنتاج على اعتبار أن "أن للتعريب وجوها اقتصادية متعددة تهم الفرد، والمجتمع القطري، كما المجتمع العربي على جهة التعميم، وهذه الوجوه إنما تتجلى تحديدا في المفاضلة الصريحة بين التعليم بالعربية والتعليم بالأجنبية"[٢]. وهنا لابد من الإشارة إلى أن التعليم بغير اللغة العربية يلحق أضرارا، مادية ورمزية، كبيرة بالناطقين بها ذلك أن المتكلم العربي يتم حرمانه من التعليم بلغته الأم أو لغة المنشأ، الأمر الذي يؤدي إلى تجريده من حقوقه اللغوية مما يتعارض مع المواثيق الدولية التي تجرم هذا النوع من

(١) وليد العناتي، العربية في اللسانيات التطبيقية، دار كنوز المعرفة، الأردن، ٢٠١٢، ص:١٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص: ١٣٦.

الحرمان، فضلا عن تنافيه مع مبدأ الديمقراطية أو العدالة اللغوية التي تقر بالحقوق اللغوية للمواطنين[١].

ولا تتوقف هذه الأضرار عند مستوى الحرمان من الحقوق فقط وإنما تتسع لتشمل الحرمان من الفوائد والأرباح والفرص التي تتيحها اللغة العربية. فمثلا باعتبار الفوائد التواصلية لهذه اللغة، فإن المؤكد أن عدد الناطقين بالعربية اليوم حوالي ٥٠٠ مليون متكلم و"هذا يوفر على هذه الكتلة التواصلية - خاصة في البلاد العربية وبشكل أقل خارجها - مصاريف الترجمة، وتبعات آجالها، وأخطائها وعدم دقتها. فلنتصور مثلا ماذا سيحصل لو جاريْنا الملهجين (أي الذين يدعون إلى ترسيم اللهجات وإحلالها محل الفصحى)، ستتوالد مشاكل تواصلية ومصاريف إضافية قريبة من تلك التي يعانيها الاتحاد الأوربي. ومن سلبيات عدم تعريب التعليم الجامعي (خاصة) والبحث العلمي عدم الاستفادة من توطين المعرفة باللغة العربية. ويمثل هذا أيضا خسارة للمواطن العربي، وإضعافا لفرص تمَلك العلم بلغته، علاوة على ما ينتج عن ذلك من تضييع فرص الاقتصاد والشغل والإبداع إلخ. ولعل الاقتصاد اللغوي (Economic of Language) من شأنه أن يفيد كثيرا في تقييم الخسارة الناتجة عن عدم تعريب البحث العلمي والبحث والتكوين الجامعيين"[٢].

لقد أصبح واضحا اليوم "أن العالم لن يستمع إلى أمة تتحدث بلسان غيرها، كما قال الرئيس الفرنسي "فراسوا ميتران" لشعبه المتعلم في تحذيره له من طغيان اللغة الإنجليزية، يضاف إلى ذلك أن العلم والتكنولوجيا لن يُستنبتا على الأرض العربية إلا باللسان العربي، ومن خلال معاناة العرب لمشكلات التقدم باللغة العربية، وإلا ظل التقدم الحديث مفصولا عن أغلبية الأمة العربية بحاجز اللغة الأجنبية، وبقيت هذه الأغلبية بحكم ذلك بعيدة عن استيعابه وتطويعه كما هو حالها إلى اليوم، إذ لم يسجل التاريخ قط أن أمة حققت التنمية والتقدم الحضاري الحقيقي بلغة غيرها من الأمم،

(١) عبد القادر الفاسي الفهري، السياسة اللغوية في البلاد العربية، مرجع سابق، ص: ٥٨.

(٢) نفسه، ص: ٥٩.

وعلى الأخص بلغة الأمم التي استعمرتها سياسيا وفكريا، فالمسألة إذن ليست مسألة عزة قومية فحسب، بقدر ما هي مطلب إنمائي وتحديثي بالأساس"[١].

ومعنى هذا أنه يستحيل على مجتمع ما تحقيق تنمية شاملة من دون الاعتماد على "اللغة الوطنية" كسند لهذه التنمية وكافل لها. وقد أثبتت هذا المعطى جل الدراسات والأبحاث النظرية والميدانية، سواء منها اللسانية أو السوسيولوجية أو التربوية أو الاقتصادية أو غيرها. مؤكدة أن اللغة الأم هي بالنسبة للمتعلم، كما بالنسبة للمواطن عموما، أكثر الوسائل نجاعة وفعالية للتعليم والتكوين ونقل المعارف والمهارات، وبالتالي لصناعة تنمية حقه[٢]. وبالنظر للمكانة المركزية التي تتبوأها اللغة في النسق الاجتماعي والثقافي يمكن القول إن اللغة الوطنية مؤهلة أكثر من غيرها للقيام بالدور التنموي، ولعل تجارب العديد من المجتمعات المعاصرة تبرز بشكل أكثر وضوحا هذا الأمر.

وعلى سبيل تقديم بعض الأمثلة الدالة في هذا المجال، يمكن أن نذكر تجربة كل من اليابان والصين والدول الإسكندينافية وغيرها كثير. فهذه المجتمعات التي تشكل نماذج للتقدم والتحضر على المستوى الكوني، لم تتحقق إقلاعها العلمي وتنميتها الاقتصادية والاجتماعية باعتماد اللغة المحتكرة للتقدم العلمي والتكنولوجي عالميا (كالإنجليزية والفرنسية مثلا) وإنما أسست إنماءها استنادا إلى مقوماتها الذاتية الخاصة، التي من بينها اللغة الوطنية، مع العلم أنها لم تنغلق على اللغات الأجنبية المتقدمة، بل وظفتها بعقلانية وتخطيط مسبق، عبر دمجها في مشروعها التربوي والعلمي والمجتمعي الشمولي، ووفق برامجها التنموية الهادفة[٣]، ومن هنا فإن "تنمية الناس، بما هم طاقة خلاقة ومبدعة، ورأس مال مادي ومعنوي مهم، لا يمكن تحقيقه عبر

(١) محمد جابر الأنصاري، تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة١، ١٩٩٢، ص:٢٠٣.

(٢) نوري جعفر، اللغة والفكر، مكتبة التومي، الرباط، المغرب، ١٩٧١، ص:١٣٧-١٦٣.

(٣) مصطفى محسن، التعريب والتنمية، سلسلة شراع، العدد: ٥٦، يونيو ١٩٩٩، ص:٤٨.

اقتلاعهم وسلخهم عن جذورهم وقيمهم الثقافية والحضارية، وأساسها اللغة"[1]، بل بواسطة استنهاضهم عبر هذه القيم الذاتية، واستدماجهم، عبر مشروع مجتمعي وحضاري واضح وشامل، في سيرورة التنمية المنشودة.

المراجع

- **ابن** منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٢.

- إدريس بوكراع، "اللغة والحضارة"، ضمن كتاب: لغة التدريس والنموذج التنموي؛ أية علاقة؟، منشورات مركز البحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية، وجدة، المغرب، ط١، ٢٠١٠.

- إدريس مقبول، الأفق التداولي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١١.

- الحسين الزاوي، الهوية وفلسفة اللغة العربية، منتدى المعارف، بيروت، لبنان، ٢٠١٤.

- باديس الهويمل، مظاهر التداولية، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١٤.

- جابر عصفور، التنوع البشري الخلاق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ١٩٩٨.

- جون جوزيف، اللغة والهوية، ترجمة عبد النور خراقي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٣٤٢.

- حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٤.

- سعيد النكر، "التداوليات واللغة الطبيعية"، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد ٥، ٢٠١٤.

- سعيد بنكراد، "استراتيجيات التواصل من اللفظ إلى الإيماءة"، مجلة علامات، العدد ٢١، ٢٠٠٤.

- طه عبد الرحمن، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٥.

- طه عبد الرحمن، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦.

- عبد الرحمن بودرع، في تحليل الخطاب الاجتماعي السياسي، مطبعة الخليج العربي، تطوان، الطبعة الأولى ٢٠١٤.

- عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي: دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، ٢٠١٤.

- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦.

- عبد الغني عماد، الهوية والمعرفة - المجتمع والدين، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ٢٠١٧.

- عبد القادر الفاسي الفهري، السياسة اللغوية في البلاد العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ٢٠١٣.

- علي بن محمد بن علي الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق عادل أنور خضر، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٧.

- علي حرب، حديث النهايات؛ فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.

- علي فريد، "اللغة والهوية بين الاستلاب الحضاري واستعادة الوعي"، دراسة منشورة على شبكة الأنترنيت بتاريخ: ١٢ نونبر ٢٠١٨. (www.ruyaa.com)

- محمد الأوراغي، التعدد اللغوي وانعكاساته على النسيج الاجتماعي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ٢٠٠٢.

- محمد الحيرش، "تداوليات التخاطب عند ميخائيل باختين"، مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد ٩، ١٩٩٩.

- محمد الربداوي، دراسات في اللغة والأدب والحضارة، القسم الأول، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٨٠.

- محمد جابر الأنصاري، تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة١، ١٩٩٢.

- مصطفى محسن، التعريب والتنمية، سلسلة شراع، العدد: ٥٦، يونيو ١٩٩٩.

- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٢٦٥، ٢٠٠١.

- نُورْمانْ فيرْكلفْ (Norman Fairclough)، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ترجمة طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩.

- نوري جعفر، اللغة والفكر، مكتبة التومي، الرباط، المغرب، ١٩٧١.

- وليد العناتي، العربية في اللسانيات التطبيقية، دار كنوز المعرفة، الأردن، ٢٠١٢.

-M ; Bakhtine ;(1929) ; Le marxisme et la philosophie du langage ;tr.fr ; Minuit. 1977.

-Thomson, John B. "Langage et Idéologie". Langage et société. No : 9, mars 1987.

-Wilhelm von Humbolt, Sur le caractère national des langues et autres écrits sur le langage, présenté, traduit et commenté par Denis Thouard, Paris, seuil, 2000.

التداولية في الدّرس اللّغوي العربي بين مظاهر التأصيل وآفاق تطوير المفاهيم

أ.د. ذهبية حمو الحاج

أستاذ بجامعة مولود معمري، تيزي وزو - الجزائر

البريد الإلكتروني: hamoulhadj_d@yahoo.fr

معرف (أوركيد): 0000-0002-2586-2227

الاستلام: ٢٣-١١-٢٠٢٠ القبول: ١٢-١٢-٢٠٢٠ النشر: ٢٧-١٢-٢٠٢٠

الملخص:

اكتشف الباحثون مصطلح التّداولية وأصبح على ألسنة اللّغويين وغير اللّغويين، يتناقلونه، ويستنطقون مباحثه من: تلفّظ، وحجاج، وأفعال كلامية، وقصدية...وإن تنوّعت المصطلحات وتعدّدت المفاهيم، فالأرجح أنّها ترتبط جلّها بكيفية الاشتغال باللّغة في مواقف كلامية معيّنة، حيث تتّخذ مواضع محدّدة تجعل الذّات المتلفّظة تبحث عن التّوافق مع مقتضى الحال، باحثة عن أدوات الإنجاز الفعلي للكلام، والإقناع، والتّأثير في الآخر، والتّلميح بالمعنى... فكيف عاد الباحثون العرب المحدثون إلى هذه المصطلحات وكيف حاولوا دراسة اللّغة وفق ما تمليه مستجدات البحث اللّغوي؟ وما أغلب المصطلحات التي تعاملوا بها في المجال البلاغي، وما الذي يبرّر القول بضرورة إحياء المفاهيم، والبحث في الآن ذاته عن أبعاد هذه المصطلحات من منظور حداثي ما بعد بنيوي.

الكلمات المفتاحية:

اللّسانيات، التّداولية، الخطاب، البلاغة، ما بعد البنيوية.

Pragmatics in the Arabic Linguistic Lesson between Rooting Aspects and Prospects for Conceptual Development

Prof. Dehbia Hamou Lhadj

University Mouloud Mammeri, Tizi-Ouzou - Algeria.

E-mail: hamoulhadj_d@yahoo.fr

Orcid ID: 0000-0002-2586-2227

Received: 23.11.2020 Accepted: 12.12.2020 Published: 27.12.2020

Abstract:

The researchers discovered the term pragmatics and was addressed, dealt with and viewed; using the term, argument, verbal acts, and intent... by linguistics and non-linguistics. Although there are various terminology and concepts, it is most likely related to how the language operates in certain verbal situations, where it takes specific positions that make the utterance seeks compatibility with the case, looking for the actual tools of speech, persuasion, influencing the other, and insinuation of meaning... How did modern Arab researchers return to these terms and how did they try to study the language according to the latest linguistic research? What are most of the terms they have dealt with in the rhetorical area, and what justifies that concepts need to be revived, while at the same time looking for the dimensions of these terms from a post-structural modernist perspective.

Keywords:

Linguistics, Pragmatics, Speech, Rhetoric, Post-Structural.

Arap Dilbilimde Edimbilim Köklerini Arama Tezahürleriyle Metodolojik ve Kavramsal Geliştirme Ufukları Arasında

Prof. dr. Dehbia Hamou Lhadj

Mouloud Mammeri Üniversitesi, Tizi-Ouzou - Algeria.

E-posta: hamoulhadj_d@yahoo.fr

Orcid ID: 0000-0002-2586-2227

Geliş: 23.11.2020 Kabul: 12.12.2020 yayın : 27.12.2020

Özet:

Bu araştırma, dil-kimlik problemini, temeli iki kavram arasında çeşitli boyutlarda ve kültürel, medeni, sosyolojik ve terihsel düzeylerde var olan sıkı diyalektik ilişkiyi vurgulayan bir kanaatten hareketle incelemeyi amaçlamaktadır. Sonrasında, esas olarak biçimsel/mantıksal felsefelerin ve başında dili diğer herhangi bir sosyal, kültürel, bilişsel veya bunlar dışındaki düşüncelerden bağımsız olarak kendi içinde ve kendisi için incelemeye çağıran Yapısalcılığın geldiği kapalı dilbilimsel yönelimlerin somutlaştırdığı geleneksel kapalı dil algısı çürütülmeye çalışılacaktır. Yapısalcılık, bu çalışmada dil ile ilgili benimsenen ve onun çevresinde olanlardan etkilenen ve onu etkileyen açık bir sistem olması bakımından ele alan açık algının tersidir. Burada, dili sadece bir iletişim aracı olarak görmenin ötesine geçilir ve daha önce zikredildiği gibi onun kültür ve medeniyet üreticisi, kimliğin ve onunla ilgili değerlerin, sembollerin, adetlerin, davranışların ve canlı beşerî bir toplum dışında gerçek anlamda var olması mümkün olmayan diğer olguların yaratıcısı olduğu görüşüne yükselinir.

Anahtar Kelimeler:

Arap Dili, Kimlik, Medeniyet, Toplum, Kültür, Sosyolinguistik, Dil Güvenliği.

تقديم:

لقد توجّه كثير من الباحثين الجزائريين في أقسام اللّغة العربية وآدابها إلى ما يُعرف بالمنهج التّداولي، فقاموا بدراسات كثيرة وناقشوا قضايا متعدّدة مرتبطة بما تقترحه التّداولية من مباحث، مثل: التّلفّظ، الحجاج، وأفعال الكلام، والتّصريح والتّلميح... وحاول فيها الطلبة الباحثون أن يدلوا بدلوهم اقتداء بما ورد في الكتب الأجنبية، وفي الحقيقة هي عودة إلى ما ورد عند العرب من قضيّة أساسية تتمثّل في الوضع والاستعمال، ونقصد بذلك وضع اللّغة من حيث البنية في مستوياتها المتعدّدة (الصّوتية، الصّرفية، التّركيبية، المعجمية والدّلالية) والاستعمال فيما يقتضي الممارسة وتداول اللّغة، وهنا يتوقّف الباحثون الأجانب عند المصطلح أي التّداولية المرتبطة في نظرهم بتوظيف اللّغة واشتغالها لأداء مهمّة التّواصل.

تحدّد مصطلح التّداولية في البحث اللّساني ليتجاوز الدّراسة المحايثة المنغلقة على البنية الدّاخلية، بحثا عن مكوّناتها ورفضا لمنتجها ومؤوليها، والبحث عن الإنسان وفي الإنسان في إنتاجه للّغة وتأويلها. وكيفية الاشتغال بها في أرض الواقع كان من مهام الفلسفة التّحليلية ومداخلها، التي أدرجت ضمن فروعها فلسفة فتحت الأبواب على ما ذكرناه سلفا، وهي فلسفة اللّغة العادية، فلسفة اللّغة التي يتحدّثها الإنسان العادي في يومه. والعودة إلى الإنسان وإلى مكوّنات العملية التّواصلية وآلياتها جعلت النّصوص والخطابات منفتحة على إمكانات القراءة والتّأويل، بعدما كان التّحليل منحصرا في البنية الدّاخلية. وفي الحقيقة، تعدّ الحاجة إلى اكتشاف عناصر أخرى مثل: من تكلّم؟ ولمن تكلّم؟ ولماذا تكلّم؟ ولماذا يقول شيئا ويقصد شيئا آخر؟ ... من الأمور التي جعلت المجال أوسع للدّراسة. والطّالب بشغفه للاطّلاع والبحث وعدم وجود القيود الصّارمة التي تفرضها الدّراسة المحايثة توجّه نحو آفاق أخرى لاستنطاق ما يعرض له من مدّونة بأدوات تساعده لا محالة على التأويل والتّفسير، ذلك أن العناصر المذكورة سلفا تعدّ مفاتيح جدّ هامّة للولوج إلى المقاصد وبلوغ الغايات التّكلمية الظّاهرة منها والخفيّة.

فلا غرو الآن أن يبحث الطلبة في مثل هذا المجال، بحيث تقدّم لهم الأدوات المساعدة على الفهم والتّأويل، وكأنّ في الأمر سهولة لتحليل اللّغة البشرية، إلا أنّ الانتقال من لسانيات الجملة إلى لسانيات الخطاب وما أحدثه من تغيّر في المعطيات المنهجية قد حرّر الطّالب الباحث من قيود الدّراسة المحايثة التي استنزفت النصوص دراسة في مستويات التحليل اللّساني المعروفة، وأصبحت الدّراسات تتشابه في محتوياتها وتركيباتها الصّوتية، والصّرفية، والدّلالية، ونظرا لإدراك الباحث للفروق الجوهرية التي يمكن أن تحدثها الأدوات التّداولية للتّعرّف على الذّات البشرية وما يكونها ويحيط بها.

١- البحث اللّساني التّداولي:

لا يخفى على أحد من الباحثين اليوم أن الدّراسات اللّغوية الحديثة مثلما يعرفها العالم العربي هي وليدة الاكتشاف الغربي من ناحية المصطلح والمعطيات المنهجية، ومصطلح التّداولية من بين هذه المصطلحات التي أثارت جدلا كبيرا، وقد حدث ذلك في أحد المؤتمرات العلمية التي عُقدت في جامعة محمد الخامس بالمملكة المغربية سنة ١٩٨٤، حين أُثير موضوع حول الدّلاليات والتّداوليات "أشكال الحدود" بين لغويين وفلاسفة حاولوا تحديد ما يربط العلامة بالعالم وبالذّات الإنسانية وتبرير العلاقة بمعطيات علمية ومنطقية، وفلسفية، وهو ما يدخل في البحث عن الحدود الفاصلة بين ما هو دلالي وما هو تداولي نظرا لاشتراك المجالين في عنصر العلامة، التي ترتبط بالموضوعات الخارجية والذّات المتلفّظة، إضافة إلى ما يثيره عنصر التّركيب من إشكالات في علاقته هو الآخر بعنصري الدّلالية والتّداول. ولقد تناقش الفلاسفة واللّغويون من أمثال أحمد المتوكّل، وأحمد الإدريسي، والأخضر بوجمعة، وعبد القادر الفاسي الفهري، وطه عبد الرحمن في عدّة مصطلحات أهمّها: التّركيب، والدّلالة، والتّداول والتّداولية وما يرتبط بها من مفاهيم مهمّة في تحديد كيفية إنتاج العلامة وأسبابها وأغراضها.

إنّ دراسة الجانب الاستعمالي في اللّغة هو الذي يسميه الأوروبيون حاليا بالتّداولية أو Pragmatics، وأصبح كثير من هؤلاء اللّسانيين ومقلديهم من العرب لا يعرفون إلا التّداولية بل حصروا كل اللّسانيات في هذا الجانب الاستعمالي، وفي هذا المقام من الضّروري العودة إلى المراحل التي قطعتها التّداولية في رحلتها نحو الشّيوع والانتشار.

- **تطوّر التّداولية عند الغربيين:**

تطوّرت التّداولية من ثلاثينيات القرن الماضي إلى تسعينياته في ثلاثة مستويات:

١. بين الثلاثينيات والأربعينيات: يرى التّقليد السيميائي والمنطقي الأنجلوساكسوني (بيرس، وموريس) أنّ كلّ نظام من العلامات يتكوّن –سواء تحدثنا عن الكلام اليومي أو الاصطناعي-من:

- التّركيب الذي يدرس علاقة الرّموز أو العلامات فيما بينها.
- علم الدّلالة الذي يدرس علاقة العلامات بمراجعها في العالم.
- التّداولية التي تدرس علاقة العلامات بمستعمليها.

وفي هذا التّصوّر ليست التّداولية تخصّصا كاملا وشاملا، ولا توجد إلا في وضعية مصطلحات في نظام اللّغة، ومن المصطلحات التي تطرح مشكلة بالنسبة للّسانيات، نجد المبهمات بشتى أنواعها: المبهمات الشّخصية، والمبهمات الزمانية والمكانية، فيبدو أن العلوم المذكورة تتدخّل في دراسة علاقة العلامة بمجالات مختلفة التّرتيب من حيث الظّهور والشّيوع (علم التراكيب، وعلم الدّلالة، والتّداولية) وهي في الآن ذاته مستقلة بعضها عن بعض، ومن ثمّ فهي وحداتية Modulaire.

٢. بين الخمسينيات والسبعينيات:

إنّ التّطوّر الملحوظ في هذه الفترة كان على يدّ فلاسفة اللّغة الأنجلوساكسونيين مثل ج.ل.أوستين (١٩١١-١٩٦٠)، وج. بول جرايس (١٩١٣-١٩٨٨) والفلاسفة البريطانيين من مدرسة أوكسفورد ستراوسن (١٨٧٢-١٩٧٠) والأمريكان سورل

(١٩٣٢)، الذين سيهتمون باللّغات الطبيعية بدل اللّغات الاصطناعية، وبذلك فهم فتحوا الطّريق لما يدعى بالتّداولية، بملاحظة أنّ دور اللّغة لا يتوقّف عند وصف الواقع، إنّما يدخل دورها في الفعل (إنّها نظرية أفعال الكلام)، وهذا يعني أنّه مقارنة بوجهة نظر سميائيي المرحلة الأولى (١٩٣٠-١٩٤٠)، فإنّ مجال التّداولية تغيّر وأصبح مجالا تامّا وكاملا، ومن ثمّ فجدّتها وطبيعتها باعتبارها ملتقى تعدّد الاختصاصات (لسانية، سميائية، سميولوجية، اجتماعية، ونفسية...) يفسّر أنّ مجال اشتغالها كثيرا ما تحدّد سلبيا، ولم يكن ذلك من قبل التّداوليين أنفسهم، وإنّما من قبل باحثين من علماء التّركيب والدّلالة الذين يمارسون التّداولية، ولكنّهم يكتفون بإعادة الأسئلة التي تزعجهم، ومن ثمّ فإنّ التّداولية ليست علما معترفا به دائما.

٣. ما بين الثمانينيات والتسعينيات:

بعد أن تقدّمت التّداولية خطوات إلى الأمام في البحث التّداولي بفضل فلاسفة اللّغة ودون أن يتحدّد بشكل دقيق، فتطوّرها كان في تيارين مختلفين: الأوّل يمارس في الميدان الأنجلوساكسوني ويجعل من التّداولية علما كاملا وتامّا وتخصّصا مستقلا وهو ما يدعى بالتّداولية المعرفية أو العرفنية. والآخر المحدّد نسبيا يرى في التّداولية تخصّصا منحدرا من اللّسانيات وهو نتاج فرنسي وهي ما يدعى بالتّداولية المدمجة.

٢- راهن التّداولية والبحث اللّساني:

يبدو السؤال متوجّها نحو الحديث عن تطوّر المناهج اللّسانية والأدبية، إذ لم تتوقّف اللّغة البشرية عن الخضوع لكلّ هذه المناهج، التي حاولت أن تضيء زاوية من زوايا البحث اللّغوي، وقد حدث نوع من التّراكم المعرفي والمنهجي حاليا في معالجة اللّغة العربية، فبعدما كانت اللّغة العربية تدرس اجتماعيا، ونفسيا، وثقافيا، وتاريخيا، واستند فيها العلماء إلى ما يوفرّه المجال الخارجي للّغة أو ما يعرف بالسيّاق الخارجي بكلّ ملابساته، يحلّ المنهج الوصفي المحايث أو ما يُعرف بالبنيوية التي أسّسها فرديناند دو سوسير في نهاية القرن الثّامن عشر وبداية القرن التّاسع عشر، وتترك اللّغة عارية كالشّجرة من أوراقها وجذورها، ولا يبدو منها إلا الظّاهر الميّت، الذي ينتظر

الإزهار، حتّى اعتبر بعض الباحثين في ظهور اللّسانيات وما جلبته من اهتمام بالبنية الدّاخلية عملا بالموضوعية والعلمية التي أرادها سوسير نوعا من الاستعمار، وتشكّل الامبريالية العالمية، التي تستهدف القضاء على تاريخ الشّعوب ومقوّماتها، والاكتفاء بدراسة اللّغة بمعزل عن أصحابها ومحيطها وما يسهم في بنائها يعني عزل اللّغة عن الإنسان والذّات بكلّ ما تحمله من خصوصيات، ويبدو أنّ المهمّة قد نجحت، نظرا لتبني أغلب لغات العالم المنهج البنيوي بحذافيره، وهذا دون الحديث عن الخصوصيات والاختلافات اللّغوية.

إنّ المنحى الذي اتّخذته اللّسانيات برفضها لما يدعى بالسياق الخارجي يعتبر تعثّرا منهجيا، وهو الأمر الذي دفع بالتّداولية أي ما يعرف بعلم استعمال اللّغة أو علاقة العلامات بمستعمليها، إلى ولوج مستوى التّحديد الدّلالي، ومحاولة فهم تغيّر الدّلالة وتحوّلاتها، وهو ما يقتضي الاهتمام بالعلاقة القائمة بين المتخاطبين والتّعرّف على أشكال تواصلهم وتفاعلهم، ما يستدعي ضرورة الاهتمام بجميع المعطيات اللّغوية وغير اللّغوية المرتبطة بالخطاب أوالتّلفّظ، حيث تنشأ الدّلالات والمحتويات الخطابية إثر التّعامل مع اللّغة أو مع كلّ السيّاق، فلم يخطئ العرب عندما تحدّثوا عن مقتضى الحال، الذي يفرض شروطا على التّخاطب وتوجيه المتخاطبين نحو فكرة الفهم والإفهام، التي ترتبط بالمقاصد والتّأويل، وتؤطّر المظاهر القولية، التي تُدعى مهما كانت طبيعتها في التّداولية بالأفعال الكلامية، مادام أوستين فشل في تصنيفها إلى تقريرية وإنجازية، واكتشف أنّه من الصّعب وضع حدود فاصلة بينها، إذ ما هو تقريري قد يكون إنجازيًا، وما هو إنجازي قد يكون تقريريا، وذلك بتطويرها وتوسيعها وانتقادها ابتداء من سورل، وجرايس...

ومثل هذه القضايا وأخرى من المجال التّداولي اللّساني كانت محل اهتمام عدد من الباحثين الجزائريين، الذين حاولوا الكشف عن التّداولية اللّسانية والاشتغال بها في العديد من البحوث العلمية، التي تبرز أهمّية العودة إلى العناصر المرفوضة في البحث اللّساني المحايث وإعادة الاعتبار لها قصد البحث في علاقة الانسان باللّغة وبما يحيط

به من ملابسات، فكانت الجهود الرائدة متمثّلة في بحوث كلّ من مسعود صحراوي، وخليفة بوجادي، ومختار الزواوي.

٣- قراءة في بعض المنجزات اللّسانية التّداولية الجزائرية:

لقد آثرنا العودة إلى بعض المراجع اللّسانية التّي كانت الأولى في البحث التّداولي على مستوى الجامعة الجزائرية، وأصبحت لأهميتها تدرج في كثير من الدّراسات والبحوث اللّسانية والتّداولية أيضا، وجاءت مرتّبة حسب صدورها.

في كتاب "**التّداولية عند العلماء العرب**"[١] يتحدّث مسعود صحراوي عن التّيار التّداولي الذي يعالج علاقة العلامات بمستعمليها-عملا بمفاهيم بيرس وموريس- وطرائق توظيف اللّغة وممارستها، وباعتبار بحثه الهادف إلى رصد ملامح التّداولية الغربية في الدّرس البلاغي العربي القديم، فإنّ اهتمامه منصب على نظرية الأفعال الكلامية، التي تعدّ مبحثا مهمّا في التيّار التّداولي الحديث، والتّنقيب في التّراث العربي عن تجليات النّظرية والكشف عن علاقة العرب بمثل هذه الظّواهر اللّغوية ومدى اجتهادهم فيها.

والأمر الذي يهمنا إشارة الباحث في مطلع كتابه إلى الحديث عن نقطة الانعطاف في مسار الدّرس اللّساني، حيث إنّ إدراك قصور المنطق الصوري في وصف الظواهر المعرفية وتحليلها، أدى إلى إدراك عجزه أيضا في تحليل الظواهر اللّغوية، فظهر في المسار اللّساني توجّهان متنافسان: توجّه شكلي صوري بزعامة البنيوية، وتوجّه وظيفي بزعامة التّداولية التي كانت السّبب الرئيس في تعميق هوّة الخلاف بين هذين التّوجّهين، بما قدّمته من مفاهيم ورؤى تطوّر بها التّيار الوظيفي المعاصر، حيث شهدت الدّراسات اللّغوية، وخاصّة مع فلاسفة المدرسة التّحليلية انقلابا مفاهيميا مهمّا، فأصبح الاهتمام بالموضوعات التّجريدية من الاهتمامات الأساسية للّسانيات، ولم يعد الدّارسون المعاصرون يؤمنون بما جاءت به البنيوية التّقليدية، وإنّما فتحوا أبواب الدّراسة على

---

(١)- مسعود صحراوي، التّداولية عند العلماء العرب، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان ٢٠٠٥.

معارف أخرى كالفلسفة، والمنطق، وعلم الاجتماع، وعلم النّفس، فتجاوزوا بذلك النّظرة البنيوية، التي أبعدت البحث عن التّركيز على الكلام وعناصره الأساسية ك: غرض المتكلّم وحال المخاطب وسياق الحال.

كما وضّح الباحث في هذا المقام قصور النّظرة البنيويّة في تحليل الظّاهرة اللّغوية، بإقصائها لأحوال التّخاطب المرتبطة بظاهرة الكلام السوسيرية، وأبقى في الآن ذاته على البنية والنّظام والوظيفة والعلاقة، التي يمكن الأخذ بها بين التّحليل التّوليدي والتّحليل التّداولي، ومن ثمّ لا يمكن تجاوز مفاهيم البنيويّة في الفكر اللّساني الّذي تأسّست عليه بقية النّظريات اللّسانية المعاصرة.

بالنسبة للباحث، تظهر التّداولية في مفهومها العام باعتبارها منهجا سياقيا، موضوعه بيان فاعلية اللّغة بربطها بالأغراض والمقاصد، ومراعاة الأحوال، والاهتمام بملابسات الوضع والإنتاج والتّأويل، فالتداولية تتعامل مع اللّغة باعتبارها نشاطا كلاميا يمارس من كلا الطّرفين المتخاطبين، ولا تكتفي بوصف البُنى في صيغتها الصّوريّة، فهي نظريّة تزاوج بين الإنتاج اللّغوي وشروطه الخارجية، وتدرس اللّغة الحيّة لغة مستعملة من قبل شخص معين، في مقام معين، موجّها إلى مخاطب معين لأداء غرض معين. والاهتمام بكلّ هذه العناصر سيقودنا إلى اعتبار التّداولية علما يهتمّ بالعناصر اللّغوية وغير اللّغوية التي يُنجز فيها الحدث الكلامي، والاهتمام بالسّياق، والظروف، والملابسات الخطابية، وذلك لكونها علما يؤمن بالواقع الاستعمالي من أجل تفسير الظواهر اللغوية.

وهذا التحليل إنْ دلّ على شيء إنّما يدلّ على محاولة الباحث تتبّع سيرورة الدّرس اللّساني عند الغربيين وتطوّره عبر مراحله التّاريخية، وصولا إلى الدّرس التداولي حتى يتبيّن الجوانب والمراحل التي تمخّضت عنها النظرة التّداولية في التحليل اللّغوي، والاهتمام باللّغة اليومية يعني في حقيقة الأمر الاهتمام بالكلام الذي يمارسه الأشخاص بشكل فردي، وهو الكلام الذي كان يُعتقد أنّه مقصى من الدّروس

السوسيرية، فالسؤال المطروح ههنا هو: هل أعادت التّداولية الاعتبار للكلام أم أنّها أكّدت على وجوده وأهمية مكانته في الدّرس اللّساني المعاصر؟

في كتاب " **في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم**"(١) وجدنا الباحث خليفة بوجادي يشير إلى أنّ التّفكير اللّساني قد عرف في مطلع القرن العشرين تغيّرا كبيرا وتطوّرا أدّى إلى تحوّل الدّرس اللّساني من الدّراسة التّاريخية والمقارنة إلى الدّراسة الآنية والوصفية، مع ظهور سوسير وما جاء به في محاضراته أو ما يكون من المفترض قد جاء به. ولم يتجاهل خليفة بوجادي الحديث عن مجهودات سوسير في التّرتيب لظهور الدّرس التّداولي الحديث، وكان ذلك دون تفصيل أو استشهاد، إلا أنّ الباحث ومثل أغلب الباحثين عاد إلى التّمييز الشّهير بين الجانب الاجتماعي للّغة، والجانب الفردي لها، ويعدّه منطلقا أساسا لتتبّع مسار ظهور المنحى التّداولي عند سوسير، ذلك أنّ تفرقته بين الجانبين وتوضيح حدود كلّ منهما قد حصر المفاهيم المشتركة بين أفراد جماعة لغوية واحدة، وهو ما يتجسّد في ضبط القوانين التي يتحقّق فيها التّواصل وينتج عنه خطابا ناجحا أو فاشلا حسب درجة احترام المخاطب لهذه القوانين، لأنّ هذه الأخيرة تتحكّم في الجانب الاجتماعي للّغة ولا تسمح للفرد أن يخلقه لوحده، يقول خليفة بوجادي:"... بتمييزه الجانب الاجتماعيّ عن الجانب الفرديّ، وحدود كل منهما يكون قد حصر المفاهيم المشتركة بين أفراد المجموعة اللّغوية الواحدة، وهي القوانين العامة (النظام) التي يؤدى فيها التّواصل؛ فيكون الخطاب ناجحًا ما احترمها، ومخفقًا ما خالفها؛ ذلك أن اللّغة في جانبها الاجتماعيّ تحكمها قوانين الظواهر الاجتماعية جميعا فلا يبدعها الأفراد، ولا يخالفونها أو يحوّرونها، كما أنّها تظهر بالتّدريج، وتتغيّر أو تختفي بالتّدريج"(٢).

---

(١) خليفة بوجادي، في اللسانيات التّداولية مع محاولة تأصيلية في الدّرس العربي القديم، ط١، بيت الحكمة للنّشر والتّوزيع، الجزائر ٢٠٠٩.

(٢) خليفة بوجادي، في اللسانيات التّداولية مع محاولة تأصيلية في الدّرس العربي القديم، ص١٤.

وفي اللّسانيات التّداولية قام الباحث بتحديد مرجعية التفكير التداولي إلى عدّة مصادر، ذكرها الباحثون، وهي موزعة بين الفلسفة والمنطق، وبعض نظريات اللسانيات الحديثة؛ نذكر منها:

- الفلسفة اللغوية: تشمل بحوث رواد فلسفة اللغة الطبيعية والفلسفة التحليلية، مقابل مدرسة اللغة الشكلية، وتقوم على دراسة كيفية توصيل معنى اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال الإبداع، ومن الذين اشتهرت بحوثهم في هذا الموضوع:

١-فيجنشتاين: يعدّ فيجنشتاين من الفلاسفة الأوائل الذين نظروا في الجانب الاستعمالي للّغة، وعرض فكرة ألعاب اللّغة التي قال في مفهومها إنّها الأفعال التي نتلفّظ بها، وترتبط بأشكال الحياة والممارسات التي نحياها، أي أنّها تنحصر فيما يباح للمتكلّمين في إطار العلاقة بينهم وبين عباراتهم.

٢-أوستين: عُرف أوستين من خلال محاضراته التي قدّمها بجامعة هارفارد في ١٩٥٥م في فلسفة اللغة، ونشرت في ١٩٦٢ بعد وفاته، بعنوان " كيف ننجز أفعالا بالكلمات"[(١)]، واللّغة في نظره تتجاوز وظيفة الاتّصال إلى وظيفة التّأثير وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كليّة.

٣-بيرس: يعدّ من الأوائل الذين اهتموا بدراسة العلامة انطلاقا من مفاهيمها الفلسفية، ويعدها أساس النشاط السيميائي. وهو يربط فهم اللغة بالمواقف التّواصلية، ويجعل المعنى مقترنا بظروف الاستعمال على نحو ما مرّ مع فيتغنشاين وأوستين.

٤-موريس: أسهم في تأسيس الدّرس السيميائي إلى جانب بيرس، ونظر إلى بنية اللّغة على أنّها نظام من السلوك؛ ذلك أنها تجعل المتلقي مستعدا لردّ الفعل وفقا للبنى التي يستقبلها، وقد جعل التداولية جزءًا من البحث السيميائي؛ وتناول اللّغة من حيث العلاقة بين العلامات ومستعمليها.

---

(1) Austin. J, Quand dire c'est faire, Traduction et introduction de Gille Lanes, Editions de Minuit, Paris 1970.

وفي كتاب "**دوسوسير من جديد، مدخل إلى اللسانيات**" للباحث مختار زواوي نجده أكثر دقّة في تحليله للوضع اللّساني الرّاهن، إذ يقوم بقراءة مزدوجة للّسانيات من خلال الدّروس والمخطوط، وحاول إثبات عدم صحة الانتقادات الموجهة من التّداولية للّسانيات وأجملها في المسائل التالية:

- إزاحة الكلام من الدّرس اللّساني.
- عدم العناية بالفرد المتكلّم.
- إقصاء الحال والسياق والاستعمال من حقل اللّسانيات.

١. **إزاحة الكلام**: لقد ذهب مختار زواوي إلى أنّ سوسير ميّز من خلال كتاب محاضرات في اللسانيات العامة بين الكلام واللسان، فاللّسانيات تشتمل على قسمين: أحدهما أساسي موضوعه اللّسان والآخر ثانوي موضوعه الكلام، فاللّغة بوصفها ملكة إنسانية وميزة كلية مشتركة بين البشر تختلف عن الألسن التي تبقى جزئية ومتغيرة؛ بمعنى أن اللّسان قسم معلوم وأساسي من اللّغة "إنه نتاج لملكة اللّغة، ومجموعة من المواضعات الضرورية التي يتبناها الكيان الاجتماعي كي يمكن أفراده من ممارسة هذه الملكة"[(١)].

يرى مختار زواوي أن في هذا التّقسيم والتّرتيب التّفاضلي تناقضا إذا قارنّا فقرات الكتاب بعضها ببعض، فمبدأ الفصل بين اللّسان والكلام وإخراج الكلام من دائرة اللّسانيات ثابت في بعض الأحيان، ونجده مبدأ نسبيا في مواضع أخرى كما هو الحال عند الحديث عن التّغير اللّساني، أدّى فصل اللّغة عن اللّسان إلى فصل الكلام عن اللّسان ليصبح هذا الأخير في نظر واضعي كتاب محاضرات في اللّسانيات العامّة هو الموضوع العلمي الوحيد الذي يمكن للّسانيات أن تصفه وفق قواعد خاصة بها، أما الكلام فلا يمكن أن يكون موضوعا علميا خاصا باللّسانيات.

(1) De Saussure. F, Cours de Linguistique générale, Editions Talantikit, Bejaia 2002, P25.

يذهب مختار زواوي إلى أنّ سوسير ميّز بين اللّسان والكلام وافترض لكلّ منها نظريّة خاصّة لكنّه لم يتخذ اللّسان الموضوع الرّئيس للّسانيات العامّة ولم يُخرج منها البحث في الكلام، وقد أسهمت مخطوطات سوسير المنشورة في رفع اللّبس عن إقصاء سوسير للكلام من مجال اللّسانيات، ويعتقد الباحث أنّ سوسير لو أراد إقصاء الكلام لأفصح عن ذلك، ولا يكتفي بالإشارة إلى وجود لسانيتين دون أي ترتيب بينهما[١].

ويشير مختار زواوي إلى أنه لم يجد الحجج والغايات والظّروف التي دفعت شارل بالي وألبير سشهاي إلى اتخاذ قرار إقصاء الكلام من حقل اللّسانيات، يقول مختار زواوي:" إنّنا لم نتمكن على الرّغم من تجوالنا الدّؤوب في أدبيات اللّسانيات السوسيرية من الوقوف عند الحجج والظروف والغايات التي دفعت بشارل بالي وألبير سشهاي إلى اتّخاذ قرار إقصاء الكلام من اللّسانيات"[٢]، ورغم ذلك نجد إقرارهما بوجود لسانيات غير لسانيات كتاب المحاضرات في اللّسانيات العامّة تعنى بالكلام، لكنّها في نظرهما لسانيات بحدود فاصلة مع لسانيات اللّسان.

٢. **الفرد المتكلم**: إنّ إقصاء الكلام من مجال اللّسانيات في رأي مختار زواوي يمثّل في حقيقة الأمر ثلاث إقصاءات هي: إقصاء للأفراد المتكلمين، وإقصاء للحال، وإقصاء للاستعمالات اليوميّة للّغة[٣]، ويعدّ الإقرار بإقصاء لسانيات سوسير للفرد المتكلّم إقرارا يفتقد لقاعدة علمية تسنده، وقد مكّنت مخطوطات سوسير المنشورة ضمن كتاباته في اللّسانيات العامّة من الكشف عن كثرة ورود الفرد المتكلم في تصوراته اللّسانية مثل: التّمييز بين الصّور الصّوتية والأشكال اللّسانية، إنّه تمييز قائم في وعي الفرد المتكلّم "إن الشّكل صورة صوتية محدّدة في وعي الأفراد المتكلمين؛ أي

(١) مختار زواوي، دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللّسانيات، ط١، ابن النديم للنّشر والتوزيع، وهران ٢٠١٧، ص ٢٠٢.

(٢) مختار زواوي، دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللّسانيات، ص ٢٠٣.

(3) - Eluard. R, La pragmatique linguistique, Nathan Editeurs, Paris 1985, P 9.

أن لها وجودا معلوما وحدودا معلومة "[١]. وقد كثُر الحديث عن الفرد المتكلّم وعدّه عنصرا أساسا في التّصوّر السوسيري اللّساني إلى درجة عدم الفصل بين مفهومه ومفهوم اللّغة.

٣. **إقصاء الحال والسياق**: والحال عادة تشمل السياق النصي؛ أي المحيط الكلامي أو الكتابي للملفوظ، والسياق الموقفي الذي يشمل كل ما يحيط بالأفراد المتكلمين، بما في ذلك الزمن والمكان والغرض الذي تواصلوا من أجله، فضلا عن السياق العالمي[٢]، وقد أصبح السياق المعيار الذي يتخذه كثير من الباحثين في الدّراسات التّداولية، بحيث يحيل مفهوم السّياق النّصي إلى الدّراسات التي نتجت عن اللّسانيات النّصية وتحليل الخطاب، بينما يحيل مفهوم السّياق المرجعي إلى تداوليات الفلاسفة والمناطقة الذين أنتجوا تداوليات الإشارة ...[٣] وأخيرا نشأ كثير من الأبحاث التّداولية على مفهوم السياق التّفاعلي، ومن الملاحظ أنّ الباحث لم يفسّر كيف تعامل سوسير مع مفهوم السّياق أيضا.

٣- البلاغة والتّداولية: مراجعة في الحدود والإجراءات:

إنّ البحث في البلاغة والتّداولية عن نقاط التّقاطع والاشتراك في آلياتهما وما عرفتاه من مباحث ومفاهيم يجعلنا نتوقّف عند بعض العناصر منها:

- السيّاق: يستعين كلّ من البلاغة والتّداولية به.
- الاستعمال: في البلاغة والتّداولية تمّ التّركيز على مفهوم الاستعمال، وهو في الحقيقة إعادة الاعتبار للإنية التّلفّظية، التي تعني توظيف اللّغة أثناء التّلفّظ بمعنى الوقوف عند عملية إنتاج اللّغة في مسيرتها من الذّهن إلى الممارسة الفعلية أي عن طريق الفعل بمفهوم التّداوليين، الذين يولون الاهتمام للمنجز من اللّغة أو القول في ظلّ توفّر شروط معيّنة وفي ظلّ التّواصل الفعلي الذي يفرض مع

(1) F.de Saussure، Ecris de linguistique générale , p 37.

(2) R, Eluard, la pragmatique linguistique, p13.

(٣) - مختار زواوي، دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللّسانيات، ص ٢٠٨.

بنفنيست (١٩٠٢-١٩٧٦) ما يدعى بالجهاز الصوري للتّلفّظ المحدّد بـ: أنا، أنت، هنا، والآن ...

لقد جاءت التّداولية حديثا لتحديد شروط إنجاح التّواصل انطلاقا ممّا يوظّف من أقوال غايتها الإنجاز، أي الكشف عن شروط نجاح ما يتلفّظ به المرء من أقوال والبحث عن الصّيغ الملائمة لتحقيق النّجاح في القول، وإلى أي حدّ يتناسب بناء اللّغة ونظامها المقيّد صرفيا، وصوتيا، وتركيبيا، ودلاليا في إطار تحوّلها إلى خطاب، وفي هذا المنحى يكون السّياق مطلبا أساسيا، وهو العنصر الذي ركّز عليه الكثير من الباحثين العرب القدامى في حديثهم عن الكلام ومقتضياته، وأسهب في الحديث عنه البعض مثلما نجد ذلك عند الجاحظ والسّكاكي ... وفي الحقيقة يعدّ ذلك بحثا في ما يعلق في اللّغة من عناصر ضرورية تسهم في نجاح تداولها، وتجسيد المقاصد في القول، وإيصال الرّسالة في أفضل حال ليتحّقق الفهم والإفهام، فالمنهج التداولي في تحليله للنصوص، مرتبط بالمقامات التي أنتجت فيها هذه الأخيرة، إذ يُعنى: " بالشروط والقواعد اللازمة للملائمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة به أي لا يشمل السياق في هذه الحالة إلا العناصر التي تحدد بنية النص وتؤدي إلى تفسيره، وهذا ما يجعل التداولية علما يُعنى بالعلاقة بين النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظم، أو ما يطلق عليه بـ"سياق النص"، أو ما سمته فرنسواز أرمنكو في تقسيمها للسياق بـ"السياق المقامي" حيث تقول إنّنا: "نعبر هنا من شيء مادي خالص، إلى شيء وسيط ثقافيا ويتميّز المقام بالاعتراف به اجتماعيا بصفته متضمّنا لغاية أو غايات، وعلى معنى ملازم تتقاسمه الشخصيات المنتمية إلى الثّقافة نفسها"[(١)]، ومثال ذلك الحديث الذي يدور بين طبيبين حول حالة مرضية، إذ إنّ مقامها العلم هو الذي يحكم تلك المحادثة.

---

(١) – شيتر رحيمة، التداولية وآفاق التحليل، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، ع٢و٣، جامعة محمد خيضر، بسكرة، جوان ٢٠٠٨، ص٥.

ولتوضيح بعض لعناصر المشاركة بين البلاغة والتّداولية آثرنا العودة إلى بعض المصطلحات الأساسية المتداولة، مثل: مقام الخطاب، التّلفّظ، نظرا لما يندرج تحتهما من مفاهيم ساهمت في تحديد التّواصل، والتّداول، والتّفاعل.

- **مقام الخطاب:**

يعد المقام أحد أهم المرتكزات التي استندت إليها الدّراسات اللّغوية والبلاغية القديمة في دراستهم للّغة أثناء الاستعمال أو أثناء الكلام، بحيث يؤدي دورا مهمّا في كشف مقاصد المتكلم وتوضيح نواياه الظاهرة والخفيّة ثم إن للسيّاق مجالات معرفية متعددة تتوزّع "عبر فضاءات معرفية كثيرة منها ما هو مرتبط بالمتكلم والمتلقي وشروط الإنتاج اللّغوي والزّمان والمكان وغيرها"(١).

وما إن نذكر مصطلح المقام عند القدامى إلا وتبادر إلى الذّهن مقوله الجاحظ المشهورة: "لكل مقام مقال"، التي تطرق لها ليس في حديثه عن المقام بصفة خاصة وإنما عند تطرقه للبلاغة والبيان والفصاحة في كتابه "البيان والتبيين"، ففي سياق حديثه عن التّحاور بين المتكلم والسّامع وكيف يتم جريان وبقاء هذا الحوار بينهما، يقول: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الحالات على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"(٢). ومن هذا القول يرى أنّ بلوغ المعنى يتم بمراعاة أحوال المستمع، وذلك باختيار الألفاظ المناسبة السهلة والمعاني الواضحة والقريبة إلى ذهنه، ويقول في موضع أخر: "أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا، إمّا عند الخاصّة إن كنت للخاصّة أردت، أو عند العامّة إذا كنت للعامّة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني

(١) - دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب، ط١، الدّار العربية للعلوم، ناشرون ومنشورات الاختلاف، بيروت والجزائر ٢٠٠٨، ص٤٢.

(٢) - المرجع السّابق، ص٤٢.

الخاصّة، وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامّة، وإنّما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام مقال"[١]. ويضيف في المعنى نفسه أنه "لا ينبغي أن يكون اللّفظ عاميا سوقيا، وكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أو غربيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي"[٢]. وهنا ربط الجاحظ الألفاظ بأحوال الناس، فلكل طبقة ألفاظها الخاصّة المتداولة وأساليبها والمعطيات التي تسهم في إنتاج لغتها وتفسّر سبل تأويلها، وهذا الأمر يستدعي الإحالة على العملية التّواصلية المجسّدة في التّلفّظ وما يفرضه من عناصر لابد منها لإنجاح الخطاب والتّخاطب.

- **التلفظ:**

جاء مصطلح التّلفّظ في النظرية التي –كما قلنا-طوّرها إميل بنفنيست عن اللّسانيين الأوائل، وهو عنده "فعل الاستعمال الفردي للّغة" أي ذلك الفعل الصّادر عن المتّكلم قصد إجراء غرض معين، وهو ليس تلك العملية الفيزيولوجية للكلام التي تتمثل في طريقة إصدار الأصوات، وإنما يتمثّل التّلفظ في تناسق دلالة الألفاظ ومناسبتها لمعانيها بشكل منطقي متماشية مع ما يقتضيه العقل. أمّا المصطلح الذي يقابل هذا المفهوم عند العرب هو مصطلح الكلام أو الحديث، وذلك ما ورد التّعريف السّابق لابن منظور. وما ينتج عنه أيضا يسمى كلاما أو قولا كما سنرى ذلك في العنصرين التّاليين:

١. **الملفوظ**: يرى بنفنيست أن الملفوظ هو نتاج عملية التلفّظ، أو هو ما يتلفّظ به أو الرّسالة الموجّهة للمتلقي (الحاضر أو الغائب)، وحسب غريماس هو: "تتابع من الجمل المحققة أي كل ما يُتلفّظ به الإنسان منطوقا أو مكتوبا، يتحدّد ضمن إنّية من التّلفّظ عن طريق ضمائر الشخص وضمائر الملكية، الصفات والظروف، والمبهمات

(١) المرجع نفسه، ص٤٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٤٢.

الزمانية والمكانية"[١] وهو ما يعبّر عنه في تحليل الخطاب بـ"الخطاب". أما عند العرب، فنجد هذا المفهوم بمصطلحات أخرى، كما قلنا سابقا، مثل: الكلام، القول، اللّفظ والحديث. وفيه يقول سيبويه: "اعلم، أنّ "قلْت إنما وَقَعَتْ في الكلام على أن يحكى بها ما كان كلاماً لا قولا، ومن أدلِ الدّليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع النّاس على أن يقولوا القرآن الكريم كلام الله، وألا يقولوا القرآن قول الله، وذلك أن هذا موضعٌ ضيق متحجّر لا يمكن تحريفهُ ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه فعُبِّر لذلك عنه بالكلام، الذي لا يكون إلا أصواتاً تامةً مفيدة، قال أبو الحسن: ثم إنَّهم قد يتوسّعون فيضعون كل واحد منهما موضع الأخر، ومما يدل على أنَّ الكلام هو الجُمَل المُتَركَّبة في الحقيقة قول كُثَير: "لو يسمعون كما سمعتُ كلام*** خرُّوا لغزَّةَ رُكَّعاً وسُجودا"[٢].

ويقول ابن جني في كتابه الخصائص: "أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحويين الجمل، نحو زيد أخوك... فكل لفظ استقل بنفسه، وجنيت ثمار معناه فهو الكلام"[٣]. ويفهم من هذا التّعريف أن الكلام ذو ثلاث خصائص وهي: أن يكون لفظا، وأن يكون مركّبا وأن يكون مفيدا ويحسن السّكوت عليه.

وقد يطلق على الكلام أيضا "كلمة"، وهي "اللفظة... جمعها كلم قال أبو منصور: والكلمة تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء. وتقع على لفظةٍ مؤلفة من جماعة حروف ذات معنى، وتقع على قصيدة بكاملها وخطبة بأسرها. يقالُ: قال الشاعر في كلمته، أي في قصيدته...كالمه: ناطقه...ويكلمُك: الذي يكلمك...كالمتُه: إذا حادثتهُ"[٤]. وقد وصف الكلام ببعض الشّروط البيانية التي تجعله واضحا بيّنا، وتتمثّل هذه الشّروط حسب البلاغيين العرب في الفصل والوصل، العطف والحذف

(١) ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل، الجزائر، ٢٠٠٥، ص١٤.

(٢) أبو بشر عمرو (سيبويه)، الكتاب، المطبعة الكبرى الآمرية، ط١، مصر ١٣١٦هـ، ص٧.

(٣) أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، تح: محمد على النجار، دار الكتب المصرية، مصر، ص٨.

(٤) ابن منظور لسان العرب، ص ٣٩٢١-٣٩٢٣.

والتّكرار... وغيرها. وكلّ ذلك بمراعاة أحوال السامع من حيث الصّدق في المنطق وترك مالا يحتاج إليه، والدّقة في التّعبير وعدم التّناقض والإشارة أحيانا إلى المعنى دون التّصريح به.

كما لقي التّلفظ اهتماما كبيرا في الدّرس النّحوي العربي أيضا، ومن المباحث التي تناولته فيه مبحث التقديم والتأخير فتناولوا دواعي هذه الظّاهرة، من المسند والمسند إليه، مثلما اهتمّ النّحويون أيضا بإشكالية تغيّر المعنى وفقا للتّغيير الحاصل بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية، حيث يكون الأقل عندما يتلقى السّامع الخبر لأوّل مرّة والثّاني عندما يكون له أدنى معرفة بموضوع الحديث. وأهّم ما تطرق إليه النّحويون أيضا حديثهم عن الوحدات اللّغوية ودورها في تأدية المعنى وتسييره، فتحدّثوا عن أسماء الإشارة، والظروف الزمنية والمكانية، ونواسخ المبتدأ والخبر، وهي تدخل ضمن عناصر الجهاز التّلفّظي الذي نادى به إميل بنفنيست في تحديد نظرية مفهوم للتّلفّظ.

٢.أقسام الكلام/ الملفوظ:

شهدت التّداولية بروز ظاهرة جدّ مهمّة، وهي الأفعال الكلامية التي تعدّ في الأساس محور نشوئها، وهي مرتبطة بما هو قول وفعل، وإن قسّمها أوستن إلى جمل وصفية وأخرى إنجازية، معوّلا في ذلك على الصدق والكذب، فإنّ الظّاهرة ذاتها كانت محور البلاغة العربية، التي تأسّست على الخبر والإنشاء، فقد قسم العلماء العرب الكلام إلى قسمين:

أ- **الخبر**: من المعروف لدينا أن الكلام يتألف من جملة مفيدة أو أكثر، وهذه الجملة تنقسم إلى قسمين: إسمية وفعلية، ففي نظر الجاحظ الخبر نوعان: مطابق للواقع (مع الاعتقاد أنه مطابق-ومع الاعتقاد أنه غير مطابق-ودون اعتقاد) وغير مطابق للواقع (مع الاعتقاد أنه مطابق-ومع الاعتقاد أنه غير مطابق-ودون اعتقاد)، لكنه يرى أن الخبر الذي يحتمل الصّدق هو الخبر المطابق للواقع، والذي يوصف بالكاذب إذا كان غير مطابق للواقع، أما الأنواع الباقية فلا تدخل في أي تقسيم. أمّا في نظر أبي العباس فإنّ الخبر ينقسم إلى

ثلاثة أضرب: ابتدائي، طلبي، وانكاري، ففي حادثة، قال الكندي لأبي العباس إني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ قال أجد العرب يقولون:

- عبد الله قائم
- إنّ عبد الله قائم
- إنّ عبد الله لقائم

} كلها لها معنى واحد

فقال له أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم – "عبد الله قائم" إخبار عن قيامه، وقولهم " إنّ عبد الله قائم " جواب عن سؤال سائل، وقولهم " إن عبد الله لقائم " جواب عن إنكار منكر قيامه. فسمى الأول خبرا ابتدائيا، والثاني خبرا طلبيا والثالث خبرا إنكاريا. وفي المنحى ذاته، يرى مسعود صحراوي في كتابه "التّداولية عند العلماء العرب" أن البلاغيين العرب أوردوا تقسيما للكلام نسبوه لإبراهيم النّظام، الذي قسّم الكلام إلى خبر وطلب، وذلك على أساس معياري الصدق والكذب، والخبر الصادق عنده هو ما طابق اعتقاد المخبر سواء طابق الواقع أم لم يطابقه، وبهذا يخالف الجاحظ الذي يرى أنّ الخبر الصّادق هو ما طابق الواقع مع الاعتقاد في المطابقة.

ب-الإنشاء: إذا كان الخبر يميّز تلك الجملة التي تحتمل الصّدق أو الكذب، فإنّ هذا ما لا يصح مع الإنشاء، الذي عدّه البلاغيون العرب في قسمين: الإنشاء الطلبي والإنشاء غير الطلبي. ينقسم الإنشاء الطلبي إلى: جملة الأمر، وجملة النهي، وجملة الاستفهام، وجملة النداء، وجملة التمني. والإنشاء غير الطلبي إلى: التّرجي، التّعجّب المدح والذمّ، القسم والتّكثير.

٣.عناصر الكلام/ التّلفّظ:

- المتكلّم عند اللّغويين هو الفاعل بفعل الكلام (أي فاعل الكلام)، أي هو من يستعمل اللّغة فتصبح كلاما، وتجاوز ابن جني ذلك إلى حد أنه أرجع "أمر الرّفع

والنّصب والجرّ للمتكلّم نفسه"[1] في حديثه عن موقع المتكلّم في الإعراب لأنه "هو من يملك المعنى الحقيقي للعبارة، وهو الأعلم بمقاصده وأغراض الكلام"[2]، وإضافة إلى استقلال اللفظ بمعناه وإفادته بمعناه أضاف السيوطي شرطا آخر للمتكلم كي يبلغ أغراضه وهو "القصد"[3]، حيث لا يعتدّ بالكلام الصّادر عن السّاهي والنّائم لعدم توفّر هذا الشّرط، فكلّ هذه الشروط من بداية الكلام إلى ختامه.... القصد فيها متعلق بالمتكلم لا بغيره، وحسب السيوطي فإن المتكلّم هو المفيد وليس الكلام، فهو في نظره "آلة موضوعة لذلك"[4] أي للإفهام.

لقد احتلّ المتكلّم عند البلاغيين دورا بارزا في العملية التّواصلية بصفة منتج الكلام ومحددا لمقاصده ودلالاته. يرى البلاغيون كذلك أن الحال التي يكون عليها المتكلّم أثناء أداء الكلام جزء من تشكيل الدّلالة العامّة لخطابه، وأنه عليه أن يكون عارفا بأحوال الكلام وظروف التخاطب وأن يراعي مقام وطبقة من يوجّه كلامه إليه. ومن بين الشّروط التي يراها البلاغيون أيضا في المتكلّم –ويشددون عليها-هي في الفصاحة والبلاغة، كي يتمكّن من شدّ انتباه المستمع إليه.

- المخاطب / السامع عند اللّغويين (النّحويين) حسب ما يقوله خليفة بوجادي في كتابه في اللّسانيات التّداولية أن "تتضح قيمة السّامع في الدّرس النّحوي من خلال جملة من الشّواهد أهمها مفهوم الكلام وأقسامه، حيث قُسم اعتداء بالسامع[5]، ويقول ابن فارس في (باب مراتب الكلام في وضوحه وإشكاله):"أما واضع الكلام فالذي

(١) ابن جني الخصائص، ص٥٢.

(٢) ابن جني، الخصائص، ص٢٢٠.

(٣) ملاوي صلاح الدين، نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية، مجلّة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع٤، جامعة محمد خيضر، بسكرة، جانفي ٢٠٠٩.

(٤) ملاوي صلاح الدين، نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية، د. ص.

(٥) خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية: مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، ص١، الجزائر، ٢٠٠٨، ص١٣٨-١٤٥.

يفهمه كلّ سامع عرف ظاهر كلام العرب"[١] أي أن الكلام يكون واضحا إذا وصل إلى ذهن السّامع وفهمه استنادا إلى ما يعرفه من أساليب لغويّة، لذلك وجب على المتكلّم مراعاة مستواه وطبقته. ولا يقل السامع أهميّة عن المتكلّم في البلاغة العربية القديمة، فإن كان المتكلّم هو منتج الخطاب وموجهه إلا أنه يبقى مقيّد بالسّامع وظروفه، وبهذه الطريقة يغدو مشاركا في العملية التواصلية، وفي تحديد الكلام. ويرى البلاغيون العرب أيضا أن الخطاب في ذاته يكون في أغلب الحالات حسب ما يريده السّامع لا المتكلّم رغم أنه خاضع له، وعادة ما يعدل المتكلّم عن كلام معين تأدّبا مع مخاطبه، مثلما ربط اللّغويون المستمع بتعريف الكلام، فقد فعل البلاغيون ذلك أيضا.

خاتمة:

إذا نظرنا إلى مفهوم التّداولية المتبلور في استخدام الكلمات أثناء توظيف اللّغة لغايات محدّدة، فإنّ مثل هذا الصّنيع لا ينضب، وبذلك يمكن الحديث عن تداوليات أخرى أو تطوّر للتّداولية، ومن أولاها نجد ما يتعلّق بالتّلفّظ أو لسانيات التّلفّظ التي عُرف بها إميل بنفنيست في كتابه "مشاكل اللّسانيات العامّة"[٢]، واللّسانيات التي عاد إليها شارل موريس، ومن مهامها وصف العلاقات الموجودة بين مكوّنات الملفوظ الدّاخلية وخصائص الجهاز التّلفّظي، والملاحظ أنّ هذه اللّسانيات حاولت الرّبط بين ما هو داخلي أي العناصر الدّاخلية، وما يفرض على هذه العناصر من الخارج كالمتكلّم والمخاطَب وملابسات مختلفة للعملية التّخاطبية، ويمكن أن نبلور هذه المعادلة في ما ينتج من علائق بين التّلفّظ والملفوظ، وفي هذا التّصوّر يبدو المنحى اللّساني الذي يفرض على مبدأ المحايثة الانفتاح على عناصر أخرى، وهو بحث عن إدماج لعناصر كانت مستبعدة مع التّصوّر البنيوي للّغة، الأمر الذي سيعيدنا إلى ما كانت تفرضه البلاغة من شروط لنجاح العملية التّخاطبية من: متكلّم، وسامع، وزمان ومكان، وملابسات أخرى، وفي الحقيقة هي عناصر لا تختلف كثيرا عمّا نادى به إميل بنفنيست

---

(١) أحمد بن فارس، متخير الألفاظ، تح: هلال ناجي، مطبعة المعارف، ط١، العراق، ١٩٧٠، ص٤٩.

(2) Benveniste. E, Problèmes de Linguistique générale, T1 et T2 Editions Gallimard, T1, Paris 1966 et 1974.

فيما دعاه بالجهاز الصوري للتّلفّظ (أنا، أنت، هنا والآن...) التي تضمن نجاح التّواصل، والتي سبق وأن حدّدها القدماء في حديثهم عن الخطابة ومعالمها في أوساط العرب خاصتهم قبل عامّتهم.

والمنحى ذاته نجده في مسألة الأفعال الكلامية والاهتمام بها في العصر الحديث أي بما نصنعه بالكلمات من أشياء، وأقوال، وأفعال قد تميّز وجهة النّظر تجاه دراسة اللّغة، إذ حاول الباحثون والفلاسفة بالخصوص البحث داخل اللّغة وخارجها وعند الذّوات المتخاطبة، وما يحيط بها من ملابسات، وبذلك ننتقل من تداولية اللّغة إلى تداولية المخاطِب أو ما يسمى بالتّداولية التّخاطبية، التي تكمن مهمتها في تحديد مآل الأقوال ووظيفتها في التّواصل، وذلك ممّا يقتضي الاهتمام بالمقاصد المعلنة والخفيّة من وراء استعمال اللّغة (اللّغة، النّصوص...) في مقامات خطابية معيّنة. وعندما يكتمل العمل حول الذّات المتحدّثة، وما أسّسه أوستين حولها من أحكام مرتبطة بالأفعال المنوطة بها، فإنّه يأتي دور ما يسمّى بالتّداولية الحوارية، التي أخذت منحى الاهتمام بجانب التّلقي أي بالمخاطَب، الذي يتحمّل مهمّة فكّ شفرات اللّغة ومحاولة الكشف عن مقاصد المخاطِب الخفية قبل الظاهرة، والبلاغة العربية لم تتجاهل هذا العنصر الهام في التّخاطب وكانت معالمه واضحة عند الجاحظ بخاصّة مثلما أسلفنا الذّكر.

يمكن القول إنّ الدّرس اللّغوي العربي الحديث شهد تطوّرا في المفاهيم المرتبطة بالتّداولية، التي نُقلت من الغرب بمصطلحاتها الفلسفية واللّسانية، والحديث عن التّطوير يحيل إلى وجود تلك المفاهيم في التّفكير اللّغوي العربي وفي مدّونات متعدّدة مثل البيان والتبيين، ومفتاح العلوم، وأسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، وفي مدوّنات الأصوليين والفقهاء، الأمر الذي ساعد الباحثين العرب المحدثين على مدّ جسر المعرفة بين المكتشفات الاصطلاحية الغربية اللّسانية والفلسفية والاجتهادات العربية البلاغية، فنتج نوع من البحث بين مظاهر التّأصيل وآفاق التّطوير في المفاهيم ومنهجية الاشتغال على المدوّنات العربية التّراثية والمعاصرة بآليات حديثة وقديمة في الآن ذاته، ممّا خلق الامتداد المعرفي بين المعطيات البلاغية القديمة والتّداولية الحديثة في نقاط مشتركة متعدّدة مادامت مؤسّسة على التّواصل وممارسة اللّغة في سياق معيّن.

المراجع

- ابن منظور، لسان العرب: تح: عبد الله على الكبير وآخرين، طبعة جديدة محققة ومشكولة شكلا كاملا ومذيلة بفهارس مفصلة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦.

- أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، تح: محمد على النجار، دار الكتب المصرية، مصر.

- أبو بشر عمرو (سيبويه)، الكتاب، المطبعة الكبرى الآمرية، ط١، مصر ١٣١٦هـ.

- أحمد بن فارس، متخير الألفاظ، تح: هلال ناجي، مطبعة المعارف، ط١، العراق، ١٩٧٠.

- خليفة بوجادي، في اللسانيات التّداولية مع محاولة تأصيلية في الدّرس العربي القديم، ط١، بيت الحكمة للنّشر والتّوزيع، الجزائر ٢٠٠٩.

- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية: مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٨.

- دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح في تحليل الخطاب، ط١، الدّار العربية للعلوم، ناشرون ومنشورات الاختلاف، بيروت والجزائر ٢٠٠٨.

- ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل، الجزائر، ٢٠٠٥

- شيتر رحيمة، التداولية وآفاق التحليل، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، ع٢و٣، جامعة محمد خيضر، بسكرة، جوان ٢٠٠٨.

- مختار زواوي، دو سوسير من جديد، مدخل إلى اللّسانيات، ط١، ابن النديم للنّشر والتوزيع، وهران ٢٠١٧.

- مسعود صحراوي، التّداولية عند العلماء العرب، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان ٢٠٠٥.

- ملاوي صلاح الدين، نظرية الأفعال الكلامية في البلاغة العربية، مجلّة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع٤، جامعة محمد خيضر، بسكرة، جانفي ٢٠٠٩.

- Austin. J, Quand dire c'est faire, Traduction et introduction de Gille Lanes, Editions de Minuit, Paris 1970.

- Eluard. R, La pragmatique linguistique, Nathan Editeurs, Paris 1985.

- De Saussure. F, Ecris de linguistique générale .

- De Saussure. F, Cours de Linguistique générale, Editions Talantikit, Bejaia 2002.

الحجاج اللغوي بين النظرية والتطبيق
آيات من سورة آل عمران نموذجًا

د. مختار حسيني
مدير قسم الدراسات القرآنية والفقهية
مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط -الجزائر
البريد الإلكتروني:mokhtarhoceini@hotmail.fr
معرف (أوركيد): 0000-0003-1835-6710

الاستلام: ٢٣-١١-٢٠٢٠ القبول: ١٢-١٢-٢٠٢٠ النشر: ٢٧-١٢-٢٠٢٠

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى بحث إشكالية الحجاج في الدراسات اللغوية المعاصرة، ومدى فاعليته في استنطاق النصوص، انطلاقا من الجانب النظري ووصولا إلى تمظهرات الحجاج في نصوص القرآن الكريم، باعتماد آليات المنهج التحليلي والترتيبات الإجرائية التداولية من خلال بعض الآيات من سورة آل عمران، بطريقة حوارية تكتشف النصوص ولا تُكرهها، وتختار زاوية الالتقاط التي تحفظ للنص حريته وخصوصيته، ومن ثم رصد مواطن التأثير في عينة من الآيات المدنية التي تتميز بأسلوب الإطناب الذي غايته الاستدلال، وبمخاطبة المخالفين من يهود ونصارى بصفات (بني إسرائيل) و(أهل الكتاب)، باعتبارها صفات تعبر عن موقف من الموضوع، وبصفة أخص حينما تتبع بوصف مقابل للأفعال، يبرز نقض الفعل للصفة الأولى التي نودي بها المخاطَب، مما يجعل المتلقي في وضع اختيار ومقارنة، تنتج عنه رؤية جديدة، وموقف للمتكلم، وتصنيف للمخاطَب، وتوليد لصفات أخرى مترتبة، ومن ثم توجيه القارئ إلى ما ينبغي أن يستحقه المخاطَب من أحكام.

الكلمات المفتاحية :

حجاج، لغة، قرآن، أهل الكتاب، بلاغة.

Linguistic Argumentation Between Theory and Practice Verses from Surat Al-Imran as a model

Dr. Mokhtar Hoceini

Assistant Professor, Director of the Qur'anic and Jurisprudence Studies Department, Center of research in Islamic Sciences and Civilization in Laghouat, Algeria

E-mail: mokhtarhoceini@hotmail.fr

Orcid ID: 0000-0003-1835-6710

Received: 01.12.2020 Accepted: 15.12.2020 Published: 27.12.2020

Abstract:

The study seeks to investigate the problem of argumentation in contemporary linguistic studies, and their effectiveness in interrogating texts, from the theoretical side to the argumentation manifestations in the texts of the Holy Qur'an, by adopting the analytical method and pragmatics mechanisms, through some verses of Surat Ali-'Imran, in a dialogical way, the texts are examined and not forced. Consequently, monitoring the areas of influence in some verses revealed in Medina that are characterized by prolongation, and by addressing the Jews and Christians with the attributes of (people of Israel) and (people of scriptures), expressing the relativity to the subject, and it also includes the position of the speaker, the classification of the addressee, the generation of other attributes, and thus guidance to the judgments the addressee should deserve.

Keywords:

Argumentation, Language, Quran, People of the Book, Rhetoric.

Uygulama ile Teori Arasında Dilsel Argümantasyon Al-i Imran Suresi'nden Ayetler Örneğinde

Dr. Öğr. Üyesi Mokhtar Hoceini

Kuran ve Fıkıh Çalışmaları Bölümü - İslami İlimler ve Medeniyet Araştırma Merkezi, Ağvat , Cezair

E-mail: mokhtarhoceini@hotmail.fr

Orcid ID: 0000-0003-1835-6710

Geliş: 01.12.2020 Kabul: 15.12.2020 yayın : 27.12.2020

Özet:

Bu çalışma, çağdaş dilbilimsel çalışmalardaki Argümantasyon sorununu ve onun metin konuşturmasında ne derece aktif olduğunu teorik yönden hareketle Kur’an metinlerindeki tezahürlerine ulaşarak araştırmaya çalışıyor. Bunu yaparken Âl-i İmrân suresinden bazı ayetler vasıtasıyla analitik metodun mekanizmalarına ve edimbilim uygulama düzenlemelerine dayanıyor. Metinlerin arkasındaki gerçek anlamları ortaya çıkaran ve onlardan uzaklaştırmayan bir diyalog yolu kullanılıyor. Metnin özgürlüğünü ve özelliğini koruyacak bir açıyla görüntüyü sunmayı tercih ediyor. Bu çalışma amacı delil getirmek olan Itnâb üslübuyla ve Hıristiyan ve Yahudilerden muhaliflerine (Ehl-i kitap ve Benî İsrâîl) sıfatlarıyla hitapla ön plana çıkan Medenî ayetlerin örneğinde etki alanlarının gözlemidir. Söz konusu sıfatların konuyla ilgili durumu ifade eden sıfatlar oldukları düşünülür. Özellikle de sıfatlar birbirini zıt olarak takip ettiğinde eylemi aynı hitap içerisind ilk sıfata aykırı kılar. Bu durum alıcıyı seçme ve karşılaştırma durumunda bırakır ve ondan yeni bir görüş doğar. Onda konuşucunun durumunu, muhatapların sınıflandırılması, aşamalı başka niteliklerin doğması ve muhatabın yargılardan hak ettiğine yönlendirme vardır.

Anahtar Kelimeler:

Argümantasyon, Dil, Kur’ân, Ehl-i Kitap, Belağat

تقديم:

تنقلت البلاغة في تاريخها الطويل بين محطات كثيرة، اكتسبت عبرها تصورات فلسفية متباينة، تراوحت بين الإمتاع والإقناع، وبين استثارة العاطفة والتخييل، ومخاطبة العقل والتدليل. ومنذ منتصف القرن العشرين - وتزامنا مع الدراسات اللسانية الحديثة - برزت تصورات جديدة أدت إلى إدماج نتائج اللسانيات الحديثة في الدرس البلاغي، أهمها مؤلف (بيرلمان) (Perelman) وزميلته (تيتكاه) (Tyteca): "مصنف في الحجاج: البلاغة الجديدة" سنة ١٩٥٨، « Traité de l'argumentation: La nouvelle rhétorique»، الذي كان له أثر كبير في إرساء ما يسمى بنظرية الحجاج، التي اتخذت مكانا وسطا بين الإقناع (البرهنة العقلية) والتأثير في المتلقي، أو بين الجدل والبلاغة الإغريقيين، كما أسهم (ديكرو) (Oswald Ducrot) في إرساء هذا التوجه في الدراسات البلاغية، وبصورة أقل (تولمين) (Tolmin) بالنظر إلى نزعته المنطقية.

صار الحجاج فنًّا تأثيريا، أو تقنيات خطابية، غايتها إنهاض النفوس وفعل الإقناع بمعناه غير الملزم، وهو ما يمثل الوجهة الجديدة للاهتمام بالخطاب في شموليته؛ من خطاب ومخاطِب ومخاطَب وسياق خطابي شامل، حيث تتصل المكونات الأساسية لحقلي البلاغة والحجاج، فتخلصت البلاغة في هذا التصور من تبعيتها التاريخية للخطابة والتأثير في عاطفة المتلقي وعقله من جهة، وتحررت من صرامة الاستدلال من جهة أخرى؛ لتتخذ مكانها بين الخطابة والجدل.

إن الحجاج حوار غايته حصول الإقناع، وليس إكراها على الاقتناع، وهو إحلال لمبدأ الاختيار واستبعاد منطق الإجبار، إنه معقولية وحرية من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورة، ومن أجل حصول التسليم برأي الآخر بعيدا عن الاعتباطية واللامعقول اللذين يطبعان الجدل، ومعنى ذلك كله أن الحجاج -بتعبير عبد الله صولة- هو نقيض العنف بكل تمظهراته، فهو يحتمل التعدد والاختلاف، وهو مرتبط بسياق خاص، يكون تسليم المتلقي فيه نتيجة مناقشة وقابلية لا نتيجة فرض وإكراه.

سنحاول في مسيرتنا البحثية هذه أن نقف على تمظهرات الحجاج في نصوص القرآن الكريم، بطريقة حوارية تكتشف النصوص، وتختار زاوية الالتقاط التي تحفظ للنص حريته وخصوصيته، فنقف على مواطن إحداث التأثير والانفعال العاطفيين اللَّذَين يميزان النصوص المكية، من خلال الإيجاز في الأسلوب، خلافا للنصوص المدنية التي تتميز بأسلوب الإطناب الذي غايته الاستدلال، وأن مخاطبة المخالفين من نصارى وبني إسرائيل تأتي بمناداتهم بصفات (أهل الكتاب) و(بني إسرائيل)، باعتبارها صفات تعبر عن موقف من الموضوع، وعلى وجه الخصوص حينما تتبع بصفات مقابلة، تجعل الفعل مناقضا للصفة الأولى التي بدأ بها الخطاب، مما يجعل المتلقي في وضع اختيار ومقارنة، تنتج عنه رؤية جديدة، ويتحدد من خلاله موقف المتكلم، وتصنيف المخاطَب، وتتولد منه صفات أخرى، تسهم في توجيه القارئ إلى ما ينبغي أن يستحقه المخاطَب من أحكام.

ومن آليات التأثير المستهدفة بالدراسة الجانب الصوتي والإيقاعي، باعتبار ما لهذه الظواهر من تأثير حجاجي، عبر ما تحدثه في نفس المتلقي من ارتياح وانفعال، وعبر تأثيرها الخفي - بالرغم من التمظهر الشكلي - حتى مع تلقيها بمعزل عن المضامين.

ومن الآليات أيضا الاكتفاء بالمقدمات المهمة دون غيرها من المقدمات التي هي فوق الحاجة، والتي تبدو معلومة للمستمعين، مثل الاكتفاء بالإبل وهي أهم الأنعام للمخاطبين، وبالسماء والأرض والجبال، وهي أهم ما تقع عليه الحواس في كل حين، فتعظم بذلك صفة الخلق في النفوس، وكالتذكير والتمثيل بالماء والظل ونعمة البصر واللسان والعقل، وتعدد المعطوفات من سماء وأرض وجبال... بوصفه أسلوبا من أساليب الحجاج، غايته التأثير وإحداث الانفعال في المستمع.

كما نبحث عينات من الألفاظ والصيغ التعبيرية التي تنهض بدور حجاجي بارز، كالنفي بوصفه مقابلا للإثبات، وأدوات الربط المختلفة، والتوجيهات الحجاجية، والعدول الكمي بالزيادة وبالنقصان، مثلما كرسه علماء الإعجاز... فالخطاب القرآني من هذه الزاوية يقوم في عمومه على هذا النحو من البناء بين المتقابلات، وعلى

الوظائف التأثيرية، إذ ثبت يقينا أن الخطاب القرآني قائم على قيم تصديقية وإنشائية معا، وهو ما يدعونا إلى الوقوف على بعض الوظائف الكلامية، والانتقال من مرجعية الواقع وخصوصية السبب والزمان والمكان إلى طلب الفعل أو النهي عن فعل، بما يحرره من المرجع في الواقع، وهو ما يعني أن فعل القول وظيفته الفعل المتضمن في القول، وغايته الفعل الناتج عن القول.

في إطار هذه التصور يقف بحثنا دراسةً نظرية لمرحلة معاصرة من المراحل التي بلغتها البلاغة، ودراسة إجرائية للخطاب القرآني الذي يعد محور البحوث البلاغية العربية، وحوارا معتدلا بين النظرية والنصوص.

أولا- تعريف الحجاج:

١- الحِجاج لغةً:

الحجاج من حاجَجَ أي نازَع بالحجَّة، ويُعرّفه ابن منظور: حاججته، أحاجه، حجاجًا ومحاجَّةً حتّى حججته أي غلبته بالحُجج التي أدليتُ بها... وحاجَّه محاجَّةً نازعه بالحجة: الدَّليلُ والبُرهان[١] مما يجعله في تصور صاحب "لسان العرب" مُرادفًا للجدل، أما ابن عاشور فيُشير في تفسير "التّحرير والتّنوير" إلى التفريق بين الحِجاج والجَدَل، مُعتمدًا ما جاء منهما في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾[سورة البقرة، الآية: ٢٥٨]، فيذهب إلى أنَّ معنى حاجَّ: خاصمَ، وأنَّه في الأغلب يُفيد الخصام بباطِل، وأنَّ الجدل يفترق عنه في أنَّ المجادَلة: المخاصمةُ بالقول وإيراد الحجَّة عليه، فتكون في الخير، كقوله تعالى: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[سورة هود، الآية: ٧٤]، وتكون في الشرّ كقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٩٧]، ومن ثمَّ فإن الحِجاج أوسع، وكلُّ جَدَل حِجاجٌ

(١) ابن منظور، لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت (لبنان)، ١٤١٤هـ، مادَّة (ح ج ج).

وليس كلُّ حِجاجٍ جدلًا، ومع ذلك تبقى المُطابقة بينهما عند القُدماء أظهر، وهو ما يلاحظ حتّى عند بعض المُحدثين(١).

٢- الحِجاج اصطلاحًا:

عرف مفهوم الحِجاج تبايُنًا بين القديم والحديث، وشهد تطوّرات مختلفة منذ أرسطو إلى اليوم، وسنلخص أهم محطاته المفاهيمية فيما يلي:

أ- عند أرسطو:

الحجاج عند أرسطو قاسم مشترك بين الخطابة والجدل، فالخطابة (Rhétorique) فنّ الإقناع عن طريق الخطاب، يكون الاهتمام فيها بما يجعل الخطاب مقنعًا، أما الجدل فعلم الاستدلال المنطقي، باعتباره "يستدلّ بطريقة صارمة، محترمًا بدقَّة قواعد المنطق"(٢).

والخطابة والجدل كلاهما يعتمد الحِجاج عند أرسطو، مع اختلاف بين بنية الحجاج في الخطابة وبنيته في الجدل، فهو في الخطابة "حجاج موجّه إلى جمهور ذي أوضاع خاصَّة، في مقامات خاصَّة، والحِجاج ههنا ليس لغاية التَّأثير النَّظري العقلي، وإنّما يتعدّاه إلى التأثير العاطفي، وإلى إثارة المشاعر والانفعالات وإرضاء الجُمهور واستمالته، ولو كان ذلك بمغالطته وإيهامه بصحَّة الواقع"(٣).

وأمّا الحجاج في الجدل فهو وسيلة تفاعل، ذات "نتيجة استدلاليَّة برهانيَّة قويَّة ولا بُدَّ من منهج متكامل... يعتمد النّطق بصفة كبيرة"(٤) لأجل التّأثير العقلي في المُتلقّي،

---

(١) يُنظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيَّة، ط٢، دار الفارابي (لبنان)، ٢٠٠٧، ص١١، ١٥، ٢١.

(2) Oliver reboul, introduction à la rhétorique, 2ème édition, Presses universitaires de France C, (France), 1994, p04.

(٣) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص١٨.

(٤) محمد سالم محمد الأمين الطّلبة، الحِجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة (لبنان)، ٢٠٠٨، ص٤٥.

ومن هنا فالحِجاج عند أرسطو قاسمٌ مُشتركٌ بين الخطابة والجدَل، لتتسم تبعًا لذلك البلاغة بالخداع والمغالطة، وهو ما جعلها محلّ ابتعاد ونفور عند الغربيّين[١].

ب- في العصر الحديث منذ ١٩٥٨ م:

ظهر حديثًا - بداية من ١٩٥٨م - تعريف جديد للحِجاج، ذو صبغة فلسفية مخالفة لما عرف به الحجاج عند أرسطو، وذلك من خلال مؤلَّفين اثنين؛ أوّلهما كان لتولمين، وثانيهما من تأليف بيرلمان وتيتكاه، مثلما أشرنا لذلك سابقًا، تلاهما بعد ذلك في سنة ١٩٨٣م كتاب لديكرو وأنسكمبر هو "الحِجاج في اللغة"، الذي تناول فيه الباحثان الحِجاج ضمن الإطار اللساني، ثُمَّ ظهر كتاب "المنطق والكلام والحجاج" (Logique, Langage et l'argumentation) لصاحبه (ماير) (Meyer)، والجدير بالذكر أن أوّل ملمح في دراسات هؤلاء للحجاج هو اعتبارهم الحجاج مستقلًا عن الخطابة والجدل كما كان عليه عند أرسطو، وأنهم "استطاعوا أن يبرّئوه من تهمة (الدّعاية) و(الاستمالة) و(المغالطة) اللائطة به في أصل نشأته في كنف الخطابة"[٢].

ولأنّ تعريفات الحِجاج متباينة لدى هؤلاء الدارسين، فإننا سنكتفي بإيراد مفهوم الحجاج عند (بيرلمان) و(تيتكاه)، ثم مفهومه عند (ديكرو)، بشيء من الاختصار، باعتبار أنّهما مفهومان يُمثّلان حقلي الفلسفة واللغة على السّواء[٣].

(١) يجب التنبيه في هذا السياق على ضرورة التّفريق - عند تناول المسائل البلاغية بالبحث - بين البلاغة الغربيّة والبلاغة العربيّة، باعتبار أن لكلّ منهما خصوصيّاتها ومنظومتها المعرفية المستقلة، تفاديا للإسقاط الخاطئ والأحكام الجائرة التي يقع فيها كثير من الدارسين.

(٢) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص٢١.

(٣) لمزيد من التفصيل ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص١١ – ٤٠. ومحمد سالم محمد الأمين الطّلبة، الحِجاج في البلاغة المعاصرة، ص١٠٤، ١٣٣، ١٣٩، و: سامية الدّريدي، الحِجاج في الشّعر العربي القديم من الجاهليّة إلى القرن الثّاني للهجرة؛ بنيته وأساليبه، ط١، عالم الكتب الحديثة، إربد (الأردن)، وجدارا للكتاب العالمي (الأردن)، ٢٠٠٨، ص٢١.

ج- الحِجاج عند بيرلمان وتيتكاه:

الحِجاج عند هذين الباحثين جملة من التّقنيّات، التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التَّسليم بالموضوعات المعروضة عليها، أو أن تزيد في درجة ذلك التّسليم [١].

وقد جعلا الحِجاج مستقلًا - كما قلنا - عن الخِطابة والجَدَل، رغم اتّصاله بهما، فالحِجاج يأخذ من الجدل الجانب الفكري، الذي هدفه التأثير في المتلقّي، ويأخذ من الخطابة التّوجيه السّلوكي، ثم يفارقهما في أنّه يجمع بين التّأثيرين؛ النّظري الذّهني والسّلوكي العملي، ليستقلَّ بذاته، وبغايته الأساسيَّة التي هي الفعل في المتلقّي، على نحو يدفعه إلى العمل، أو يهيّئه للقيام بالعمل[٢]، ويتخلّص في الوقت ذاته من صرامة الاستدلال، ومن تلاعب الخطابة بعواطف المتلقّي، ولذلك أتبعا كلمة "الحجاج" في عنوان كتابهما بجملة "الخطابة الجديدة".

إنّ موضوع نظريَّة الحِجاج عند بيرلمان وتيتكاه هو دراسة التّقنيّات الخطابيَّة التي من شأنها التأثير العقلي ودفع المتلقّي للعمل، إلا أن اهتمامهما باللغة كان فقط من حيث إنَّها واسطة ووسيلة لمنطق الحِجاج، لأجل تحقيق التّأثير العقلي في المتلقّي.

د- الحِجاج عند ديكرو:

تختلف نظريّة (ديكرو) في مؤلَّفه "الحجاج في اللغة" عن غيرها من النّظريّات القديمة مثلما هي عليه عند أرسطو، كما تختلف أيضا عن نظريَّة بيرلمان وتيتكاه، وعن نظريَّة ماير وتولمين، وغيرها من النَّظريَّات، ذلك بأنّها نظريَّة لسانيَّة تقوم على اللغة أساسًا، تدرُس الوسائل اللغويَّة وإمكانات اللغة الطّبيعيّة لأجل توجيه الخطاب، وتحقيق الغايات الحِجاجيَّة للمتكلّم، فالأقوال حجج لأقوال أخرى، والقول (ق١) يقتضي التَّسليم بالقول (ق٢)؛ فالأوّل حجَّة، والثّاني نتيجة يُريد المتكلّم إقناع المتلقّي بها. ومن

---

(١) خليفة بوجادي، في اللسانيّات التّداوليَّة مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط١، بيت الحكمة للنشر والتوزيع (الجزائر)، ٢٠٠٩، ص١٠٦.

(٢) الدّريدي، الحِجاج في الشّعر العربي القديم، ص٢١.

ثمَّ فإن الحجاج عند المؤلِّفَين: "إنجاز لعملين هما: عمل التَّصريح بالحجَّة من ناحية، وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى، سواءٌ كانت النّتيجة مصرّحًا بها أو مفهومة من (ق١)"(١).

تقوم نظريَّة ديكرو على اعتبار اللغة حاملة بصفّة ذاتيَّة لوظيفة حِجاجيَّة، فالحِجاج متضمّن في البنى اللفظيَّة، والقول لا ينفصل معناه عن قوَّة حِجاجيَّة كامنة فيه، كما يؤكّد ديكرو على مفهوم آخر مهمّ هو التَّوجيه (L'orientation) "أو السّمة التّوجيهيَّة للخطاب الحِجاجي، وأنّ القيمة الحِجاجيَّة لقول ما ليست في حصيلة المعلومات التي يقدّمها فحسب، بل إنّ الجملة قد تشتمل أيضًا على عناصر صوتيَّة وبلاغيَّة؛ من تعابير وصِيَغ، فضلًا عن محتواها الإخباري، تعمل كلّها على إعطاء توجيه حِجاج للقول، ومن ثمَّ توجيه المتلقّي في هذا الاتّجاه أو ذلك"(٢).

ويذهب ديكرو إلى أنّ التّوجيه الحِجاجي للخطاب هو الذي يحدّد القيمة الحِجاجيَّة للقول، أمّا القول في حدّ ذاته فهو منشئ للحجّة، وليس للقيمة الحجاجيَّة.

يقوم الحِجاج عند ديكرو على البنى اللغويّة وعلى ترابطها داخل الخطاب، أي على الأقوال نفسها، خلافًا للاستدلال الذي يقوم على ما تحمله تلك البنى اللغوية من وقائع، وما تتضمّنه من قضايا، لا على البنية اللغويّة للأقوال، "فالحِجاج إذًا متّصل بالعلاقات بين الأقوال في النُّصُوص والخطابات، في حين أنّ الاستدلال متّصل بالعلاقات بين القضايا التي نحكم عليها إمّا بالصّدق وإمّا بالكذب"(٣).

ووسّع ديكرو مفهوم الحجَّة والنّتيجة، مؤكدا أنهما قد تكونان قولًا أو فقرة أو نصًا أو عنصرًا غير لفظيّ، كسلوك معيّن، وأنهما قد تكونان ظاهرتين أو مُضمرتين، بحسب الاعتبارات السّياقيَّة، "فقد تلجأ الحجَّة إلى الإضمار لوُجُود معارف مشتركة بين

(1) Ducrot (O) et Anscombre (J.C), L'argumentation dans la langue, Editions Mardaga (Bruxelles), 1983, p08

(2) Ibid, p18

(٣) محمد سالم محمد الأمين الطّلبة، الحِجاج في البلاغة المعاصرة، ص١٩٤.

المُستدلّين بها... ونذكر من المضمرات الخاصَّة كلّ ما تعلَّق بتصوّرات المتكلّم، والمستمع، بعضهما في بعض، من حيث معارفهما أو آرائهما أو مبادئهما أو قيمهما"[١]. والأمر نفسه بالنسبة للرّابط الحِجاجي الذي يربط الحجَّة بالنّتيجة، فقد يكون مصرّحًا به، وقد يكون مضمرًا كما هو الحال في النُّصُوص الأدبيَّة والشّعريَّة، التي يُلجأ فيها إلى التعمية والغموض، بقصد دفع القارئ إلى بذل الوسع في استكشاف قصدية المؤلف، ممّا يُضفي على القراءة طابع المُتعة والإثارة.

ثانيا: الرَّوابط الحِجاجيَّة والعوامل الحِجاجيَّة:

الرّوابط الحجاجيّة عند ديكرو هي العناصر اللغويَّة الخاصَّة بالحِجاج، والتي تربط بين الأقوال أو بين الحُجج، أو بين حجَّة ونتيجة، مثل الأدوات التَّالية: لكن، إذن، بل، لأنّ، حتَّى... مثل قولنا: زيدٌ يُحسن إلى النَّاس إذن سيُحبُّه النّاس، فالرَّابط الحِجاجي (إذن) يربط بين الحجَّة: (زيد يُحسن إلى النَّاس)، والنّتيجة: (سيُحبُّه النّاس)، أمّا العوامل الحِجاجيَّة فهي لا تربط كما هو الحال في الرَّوابط الحِجاجيَّة بين الحجج، أو بين حجَّة ونتيجة، ولكنّها تقيّد الإمكانات الحِجاجيَّة لقولٍ ما، بواسطة أدوات لغويَّة، كأدوات القصر، مثل: (ما... إلاَّ)، وأدوات أخرى مثل: ربّما، كاد، تقريبًا... مثلما يوضحه المثال التالي:

٠١ – بلغت حرارة الطّفل (٣٨ °).

٠٢ – ما بلغت حرارة الطّفل إلاَّ (٣٨ °).

فالملفوظ الأوَّل تتعدَّد إمكاناته الحِجاجيَّة، وتتعدَّد النّتائج التي يؤدّي إليها، فقد تكون الحرارة في نظر القائل مرتفعة، مما يعني أن في ملفوظه دعوة إلى الإسراع بالطفل إلى المستشفى، كما يحتمل أن يكون الملفوظ فيه دعوة لعدم التسرُّع في نقل الطفل إلى المستشفى، وبالمقابل فإنّ الملفوظ الثّاني (٠٢) تقلَّصَت فيه الإمكانات

(١) طه عبد الرّحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط١، المركز الثقافي العربي (بيروت)، ١٩٩٨، ص٢٥٦

الحِجاجيَّة، وأصبح يُؤدّي إلى نتيجة واحدة، هي عدم التسرُّع في أخذ الطفل إلى المستشفى، وذلك بسبب دُخول العامل الحِجاجي (ما... إلاَّ). وهذان النَّوعان يحقّقان ما يُسمَّى بالعلاقة الحجاجيَّة، وهي تختلف عن علاقة الاستلزام المنطقي، لأنّ ما يُحقّق هذه العلاقة هي المكوّنات اللغويَّة.

ثالثا: العلاقات الحجاجيَّة:

إن النصّ الحِجاجي علاقاتٌ وتفاعل، وليس مجرَّد حُجج يرصف بعضها إلى جنب بعض بغير ارتباط ولا انسجام، ومن ثمَّ فإنه لا بُدَّ أن يكون النصّ الحِجاجي بناء تتّسق عناصرُه وتترابط في داخله الحجج، تحقيقا لقصدية صاحبه، والعلاقات الحجاجيَّة إنّما هي نتاج الرّوابط الحِجاجيَّة التي ذكرها ديكرو، فالرّوابط الحِجاجيَّة إذن جملة من الأدوات اللغويَّة التي يعتمدها صاحب النصّ في بناء الرّبط بين أجزاء نصّه، ليُنشئ من ثمَّ العلاقات الحِجاجيَّة التي تتعدَّد بتعدُّد الخطابات، وتختلف باختلاف الباثّ والمتلقّي.

وأهمّ العلاقات الحِجاجيَّة: العلاقة السَّببيّة، علاقة التّتابع، علاقة الاقتضاء، وعلاقة الاستنتاج، وعلاقة عدم الاتفاق.

١- العلاقة السَّببيَّة:

تقوم العلاقة السببية على ربط علاقة بين حُجَّة ونتيجة، ربطًا يجعل الحُجَّة سببًا للنّتيجة، وفي هذا النوع من العلاقات يحرص الباثّ على أن يجعل "بعض الأحداث أسبابًا لأحداث أخرى، ويسم فعلًا بأنّه نتيجة متوقَّعة لفعلٍ سابق"[1]، وربّما تصير هذه النّتيجة سببا لنتيجة أخرى، ليحدث ما يُسمَّى بالتّتابُع السّببي، الذي يُفضي – ربّما - إلى علاقة سببيَّة في مستوى أعلى، تجعل النصّ وسيلةً والنّتيجة غاية.

(١) سامية الدّريدي، الحِجاج في الشّعر العربي القديم، ص٣٢٧.

٢- علاقة التَّتَابُع:

هي علاقة تربط القول بما يتبعه، وتسمح باطّراد الحديث في شكل سلسلة كلاميَّة مترابطة الأجزاء، ممّا يؤهّل هذه العلاقة إلى اكتساب طاقة حِجاجيَّة كبيرة، كما أنَّها علاقة مرنة يُمكنها الظّهور على أكثر من مستوى، فقد تظهر على مستوى الحجج فيما بينها، كأن تقتضي حجَّة ما حجَّة أخرى، أو على مستوى الأفكار، أو الأحداث...

٣- علاقة الاقتضاء:

هي علاقة تربط - كغيرها - الحجَّة بالنّتيجة، إلا أنّها علاقة أقوى، إذ تجعل "الحجَّة تقتضي تلك النّتيجة اقتضاءً، والعكس صحيح، بحيث تغدو العلاقة ضربًا من التّلازُم بين الحُجَّة والنّتيجة، وهو ما لا توفّره سائر العلاقات، حتَّى السّببيَّة منها"(١).

٤- علاقة الاستنتاج:

هي علاقة تربط الحجَّة بالنّتيجة، ربطًا يوحي بأنَّ النّتيجة تنشأ من الحجَّة وتصدُر عنها، وقد يقوم المتكلّم بتقديم الحجج، وتترك للمتلقّي النّتائج بعد توجيهه إليها، أي إنّه يُمكن التّصريح بالنّتيجة أو السُّكوت عنها لتفهم ضمنيًا، وهو ما يُميّز الاستنتاج الطّبيعي أو شبه المنطقي في الخطاب التّداولي، عن الاستنتاج المنطقي القائم على التّصريح بطرفي الاستنتاج.

٥- علاقة عدم الاتّفاق:

هي علاقة تقوم على عدم الاتّفاق بين حجَّة يقدّمها المتكلّم ونتيجة لا تتّفق مع تلك الحُجَّة، مع توجيه للخطاب وللمتلقّي نحو النّتيجة، وبتقبّل النّتيجة ترفض الحُجَّة، ممّا يُبرز الخلفيَّة المنطقيَّة لهذه العلاقة، "وإن كانت أكثر العلاقات تعقيدًا وأخفاها... فإنّها أكثرها إثارة"(٢).

---

(١) نفس المرجع، ص٣٣٥

(٢) سامية الدّريدي، الحِجاج في الشّعر العربي القديم، ص٣٤٧.

ففي مثل قولي: تقاعس المسلمون عن نصرة فلسطين، وهم أكثر عددًا وأوفرُ مالًا من غيرهم، يبدو التّقاعُس نتيجة، لكنَّني سُقت لها حججًا: الأولى أنّ المسلمين أكثر عددًا، والثّانية أنّهم أوفر مالًا، وهذه الحُجج من المفروض أن تؤهّلهم لنجدة فلسطين ونُصرتها، لكن العلاقة بينهما وبين النّتيجة فيها مفارقة وعدم اتّفاق، لتتأكّد النّتيجة التي هي: التّقاعُس والجُبن.

رابعا: السُلَّم الحِجاجي (Echelle argumentative):

السُّلَّم الحِجاجي هو علاقة ترتيبيَّة للحجج، يعمد إليها المتكلّم لتحقيق غاية ما، متوخّيًا في ترتيبه للحجج قوّتها. أو هو: "عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال، مزوّدة بعلاقة ترتيبيَّة وموفّية بالشَّرطين التّاليين:

أ – كلّ قول يقع في مرتبةٍ ما من السُلَّم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطَّرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه.

ب – كلّ قول كان في السلّم دليلا على مدلول مُعيَّن كان ما يعلوه مرتبةً دليلًا أقوى عليه"(١).

ويُمكننا التّرميز لهذا السُلَّم بما يلي: (أ، ب، ج) حجج تخدم النّتيجة (ن) بإقامة علاقة ترتيبيَّة بين هذه الحجج المنتمية إلى فئة حِجاجيَّة واحدة، بحيث:

أ – القول (أ) إن كان يؤدّي إلى (ن) فالذي يعلوه درجةً أي (ب) و(ج) يؤدّيان إلى النّتيجة (ن) أيضًا والعكس غير صحيح.

ب – الحجَّة (ب) دليلٌ أقوى من (أ) بالنّسبة إلى (ن)، و(ج) أقوى من (ب) كذلك، ففي الأقوال الآتية: زيدٌ من المحسنين (ن).

أ – زيدٌ يُحسن لذويه.

ب – زيدٌ يُحسن للنّاس.

---

(١) طه عبد الرّحمن، اللسان والميزان، ص٢٧٧ – ٢٧٨.

ج – زيدٌ يُحسن لعدوّه.

هذه الحُجج من نفس الفئة الحجاجيَّة، ومن نفس السُلَّم الحجاجي، والنّتيجة المؤدّية إليها واحدة هي: (إحسان زيد)، ولكنّ قوَّة الحُجج تختلف، و(ج) أقواها، لذا يُوضع في أعلى درجات السُلَّم الحِجاجي، ثم تليه (ب) ثمَّ (أ) بهذا الشَّكل:

(ن) (إحسان زيد).

ج إحسانه لعدوّه.

ب إحسانه للنّاس.

أ إحسانه لذويه.

خامسا: قوانين السُّلَّم الحِجاجي:

أهمّ قوانين السُّلَّم الحِجاجي ثلاثة:

١ – **قانون تبديل السُلَّم**: ويُسمّيه البعض (قانون النّفي)، ومُقتضاه: إذا كان قولٌ ما (أ) يؤدّي إلى نتيجةٍ مُعيَّنَةٍ (ن) فإنَّ نفيه أي (- أ) سيكون حُجَّة لصالح نقيض النّتيجة (ن)، أو نفيها أي (– ن).

ويُمكن أن نُمثّل لهذا بالمثالين التَّاليين:

١ – زيدٌ يُحسن إلى النّاس، زيدٌ يُحبُّه النّاس.

٢ – زيدٌ لا يُحسنُ إلى النَّاس، زيدٌ لا يُحبُّه النّاس.

فقبُول الحِجاج في المثال الأوّل (٠١) يُؤدّي إلى قبُول الحجاج في المثال (٠٢).

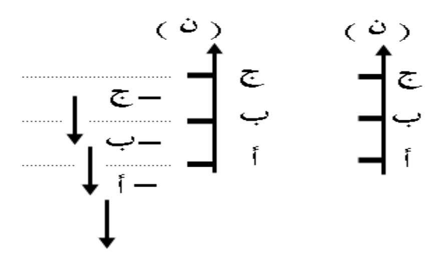
٢- **قانون القلب**: يرتبط هذا القانون بالقانون السَّابق، أي بالنَّفي ومُقتضاه، إذا كانت الحجّتان (أ) و(ب) تؤدّيان إلى نفس النّتيجة (ن)، وكانت (ب) أقوى من (أ)، فإنَّ نقيض (أ) أقوى من نقيض (ب) في التّدليل على نقيض (ن)، أي (- أ) أقوى من (– ب) للتّدليل على (–ن)، ومنه فالسُلَّم الحجاجي للأقوال المنفيَّة هو عكس السُلَّم الحجاجي للأقوال الإثباتيَّة، وفي مثالنا السَّابق:

(ن) (إحسان زيد).
ج إحسانه لعدوّه.
ب إحسانه للنّاس.
أ إحسانه لذويه.

(- ن) (عدم إحسان زيد).
–أ زيد لا يُحسن لذويه.
–ب زيد لا يُحسن للنّاس
–ج زيدٌ لا يُحسن لعدوّه.

٣- قانون الخفض (Loi d'abaissement):

مقتضى هذا القانون أنّه: "إذا صدَق القول في مراتب مُعيَّنة من السُلَّم فإنّ نقيضه يصدُق في المراتب التي تقع تحتها"[١] يلخص ذلك السُّلَّم الحِجاجي التّالي:



ومثال ذلك السُلَّم الحجاجي التّالي:

(ن) (مكانة زيد عندي).

ج أنا أجلّ زيدًا.

ب أنا أحبّ زيدًا.

أ أنا أحترم زيدًا.

إذا صدق القول في مراتب مُعيَّنة من السُلَّم، فإنَّ نقيضه يصدُق في المراتب التي تقع تحتها، فهذه الحُجج التي صُغتها تؤكّد كلّ حجَّة منها ما سبقها من حُجج، مرتّبة حسب قُوَّتها لخدمة نتيجة واحدة (ن) هي مكانة زيد عندي أو في قلبي. لكنّني إن

(١) طه عبد الرّحمن، اللسان والميزان، ص٢٧٧.

قُلت: لا أجلُّ زيدًا أي (- ج) لا يستلزم أنّني لا أُحبُّه أو أنني لا أحترمه، أي لا يستلزم (- ب) و(- أ)، لكنَّه يستلزم أنّني لا أجلّه أي يستلزم (-ج) وهكذا.

سادسا: الجانب الإجرائي:

ينطوي النصّ القرآني على أبعاد ثلاثة: بُعد لغوي، وبُعد معرفي، بما يتضمَّنه من مبادئ في العقيدة والتّشريع والأخلاق، وربما حتَّى في الجانب العلمي التخصصي، وهو خطاب تواصلي بما يحتويه من أساليب خطابية، وبما يثبته نزوله منجّمًا، بحسب أسباب للنّزول ووفق مقاصد شرعية قد يقتضيها المقام أو تحددها قصدية الشارع، ممّا يؤهّل النصّ القرآني لأن يكون قابلًا لأن يقرأ ويفهم في كلّ زمان ومكان.

إن الدعوة إلى تجديد الفهم والتلقي لكتاب الله اقتضتها مرونة القرآن وصلاحيته لكل زمان ومكان، إلا أنها ليست دعوة للتحرّر من كلّ قيد، أو تحريضا على الخوض في النصّ القرآني بغير علم، فكما أننا نُؤمن بحقّ الاجتهاد وأنّ لكلّ مجتهد نصيبا من اجتهاده، فإننا نُؤمن أيضًا بما خطَّه القُرآن ذاتُه من حدود للاجتهاد، فلا ينبغي التدثُّر مطلقا بالمناهج اللسانيَّة الحديثة لتحريف معاني النصّ القرآني، وخرق قواعده وكلّيَّاته التي بيّنها العُلماء.

إنّ دعوتنا هنا لا تعدو أن تكون دعوة للاجتهاد الصحي الذي يلتزم الحُدُود، فتنحو معه القراءات منحى إيجابيّا، يثري دلالات النصّ القُرآني، بما يستقيم والتراكم المعرفي البنَّاء، بعيدا عن الهدم والتقويض، في سعي حثيث للتدبُّر والتفكُّر المطلوبين شرعا، وفي إطار احترام خُصُوصيَّات القرآن وقداسته.

إن الخطاب القرآني رسالة من الله تعالى إلى النّاس كافَّة، وهو خطاب "يمثّل عمليّة الاتّصال بكامل عناصرها؛ من مرسل، ومرسل إليه، ورسالة، وقناة اتّصال، وأثر، لذا دعا العقول لأن تتأمّله وتبحث فيه"(١)، وأن تقف على مضمون رسالته، وإلاَّ فإنَّ الرّسالة لم تصل.

---

(١) بن يامنة سامية، الاتّصال اللساني بين البلاغة والتَّدَاوليَّة، مجلَّة دراسات أدبيَّة، (الجزائر)، العدد١، ٢٠٠٨، ص٤٨ – ٤٩.

في هذا الإطار يصبُّ اجتهادُنا، خصوصا أنّ الله تعالى أقرب إلينا من كلّ مُرسل، والرّسالة ماثلة بين أيدينا، والمُتلقّي هو "نحن"، كما قال محمّد إقبال – رحمه الله – عن وصيَّة والده: "اقرأ القرآن كأنَّه أنزل إليك"، وحتى إن كان المقال في خطاب الله لنا سابق عن المقام، فإنّه متعلّق بوجه من وجوه الإعجاز القرآني وبعلم الله بما يكون، وهو في ذلك يشاكل نزول القرآن الكريم إلى السَّماء الدُّنيا ثمَّ نزوله على سيّدنا محمّد صلَّى الله عليه وسلَّم بعد ذلك منجّمًا بحسب الأحداث، والعبرة كما - قرر العلماء - "بعموم اللفظ لا بخُصُوص السَّبَب"[(١)].

سوف نسعى في هذا البحث إلى تحليل بعض النُّصُوص القرآنيَّة الموجّهة إلى أهل الكتاب تحليلا بلاغيا، من وجهة نظر البلاغة الجديدة، ينصبُّ فيه الاهتمام خاصَّة على ما يُحدثه الخطاب من تأثير في المتلقّي، باعتباره الهدف الأسمى الذي نزل القرآن لأجله، وعلى رصد ما يتضمنه النص من حُجج، وكيفيَّة بنائها، وتتبُّع مواطن الحِجاج، ونقاط القوَّة، ومصادر الطّاقة الحجاجيَّة الموزّعة في الخطاب، وكيف أنها مشحونة موجهة توجيها غايته إحداث أكبر الأثر في المتلقّي، وحمله على التّسليم بالنّتائج والإذعان لها، مُستخلصين آناء ذلك تقنيّات الحِجاج المُتّبعة، والسُلَّم الحِجاجي الذي يلخّص حجاجيَّة البنية العامَّة للخطاب.

١ - الآيات القرآنية:

يقول الله تعالى: ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)﴾ [سورة آل عمران، الآيات: ٦٩ – ٧٠ – ٧١]

(١) حيث "إذا اتفق ما نزل مع السبب في العموم، أو اتفق معه في الخصوص، حُمل العام على عمومه، والخاص على خصوصه" مناع بن خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، ط٣، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض (المملكة العربية السعودية)، ٢٠٠٠، ص٨٢

٢- تفسير الآيات كما هو في كتب التفسير:

﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ودَّت: أي تمنَّت، وطائفة: جماعة، أهل الكتاب: "أهل التَّوراة من اليهود وأهلُ الإنجيل من النّصارى"[١] ويُرجّح ابن عاشور أنَّ "المُراد بأهل الكتاب هنا اليهود خاصَّة، ولذلك عبَّر عنهم بطائفة من أهل الكتاب"[٢].

أ- سبب النُّزُول: "نزلت في مُعاذ بن جبل وحُذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهُودُ إلى دينهم"[٣]

ب- التفسير: لو يُضلّونهم: لو يصدُّونهم عن الإسلام، أيُّها المؤمنون ويردّونكم إلى الإضلال "والإضلال في هذا الموضع الإهلاك"[٤].

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾: ما يُهلكون أحدًا غير أنفُسهم.

يقول الزّمخشري في هذه الآية: "وما يقدرون على إضلال المسلمين وإنّما يُضلُّون أمثالهم من أشياعهم"[٥] أو أنّهم بإضلال غيرهم فقد صاروا هم أيضًا ضالّين (لأنّ الإضلال ضلال)[٦].

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: وما يدرون ولا يعلمون.

---

(١) الطّبري ابن جرير، تفسير الطّبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحق: محمود محمّد شاكر، ط٢، مكتبة ابن تيميّة (القاهرة)، دت، ج٦، ص٥٠٠.

(٢) ابن عاشور محمّد الطّاهر، تفسير التّحرير والتّنوير، ط١، الدّار التّونسيّة للنّشر (تونس)، ١٩٨٤، ج٣، ص٢٧٨.

(٣) البغوي الحُسين بن مسعود، تفسير البغوي: معالم التّنزيل، تحق، محمّد عبد الله النّمر وآخرين، ط١، دار طيبة للنّشر والتّوزيع (الرّياض)، ١٩٨٩، ج٢، ص٥٣.

(٤) الطّبري، تفسير الطّبري، ص٥٠٠

(٥) نفس المرجع، ص٥٠٠.

(٦) الزّمخشري جار الله، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تحق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي أحمد معوّض، ط١، دار الكُتُب العلميَّة (بيروت)، ١٩٩٣، ج١، ص٥٦٨.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾: خطابٌ إلى أهل الكتاب ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾: لم تجحدون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: أي بما في كتاب الله الذي أنزل إليكُم، وكفركم بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، وما تجدونه عندكم في كتبكم من أدلَّة على نبوَّته صلَّى الله عليه وسلّم، مع شهادتكم أنَّ ما في كتبكم حقٌّ وأنَّه من عند الله.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: التفاتٌ إلى خطاب أهل الكتاب وإعادة ندائهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ثانيةً لقصد التَّوبيخ وتسجيل باطلهم عليهم"[1].

﴿لِمَ تَلْبِسُونَ﴾ لِمَ تخلِطون ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ و" كان خلطهم الحقَّ بالباطل إظهارهم بألسنتهم من التّصديق بمحمّد صلَّى الله عليه وسلّم، وما جاء به من عند الله، غير الذي في قلوبهم من اليهوديَّة والنَّصرانيَّة"[2].

وقال آخرون في ذلك: (الحقّ) التَّوراة التي أنزل الله على موسى، و(الباطل) الذي كتبوه بأيديهم، "وقرأ يحيى بن وثاب "تلبَسون" بفتح الباء، أي تلبسون الحقّ مع الباطل، "كقوله - عليه السلام - كلابس ثوبي زور"[3].

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ و" كتمانهم الحقَّ يحتمل أن يُراد به كتمانهم تصديق محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ويحتمل أن يُراد به كتمانهم ما في التّوراة من الأحكام التي أماتوها وعوّضوها بأعمال أحبارهم وآثار تأويلاتهم وهم يعلمونها ولا يعملون بها"[4].

(١) الزّمخشري، الكشّاف، ج١، ص٢٧٩.

(٢) نفس المرجع، ج١، ص٢٧٩.

(٣) نفس المرجع، ج١، ص٥٦٨.

(٤) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير، ج٣، ص٢٧٩.

٣- الأبعاد الحجاجية:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾: هو خطاب موجّه من الله تعالى إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم وإلى الفئة المؤمنة معه عبر الوحي، الذي نزل به جبريل عليه السّلام.

يظهر الحِجاج في الخطاب منذ البداية على مستوى الوحدات اللغويَّة منفردة، لأنّ اللغة بكلّ مستوياتها قائمة على الحجاج، تراكيبَ وجُملًا ونصُوصًا، ذلك بأنّ "للكلمة طاقة وشحنة حجاجيَّة بها تُساهم في حجاجيَّة الملفوظ بأكمله"(١).

فالنّداء: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فيه شدٌّ للانتباه، وفيه إبلاغ وتوصيل، وهو من الإنشاء الطّلبي "والحجاج في صلبه طلب صريح أو ضمني بتسليم المُستقبل"(٢).

و﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ استعمال للقب هو صفة من الصّفات التي يُمكن للمُرسل أن يُحاجج من خلالها، إضافة إلى دلالتها على التّضمين الذي مفاده: إنكم تعلمون الكتاب، وتُدركون الحقّ فيه، وإنّكم أهله وأولى النَّاس باتّباع ما جاء فيه... فوصفهم بهذه المتضمنات علامةٍ على معرفتهم بالحقّ، وليس هذا فحسب بل ليُؤسّس عليها فعلًا حِجاجيًا، إضافةً إلى أنّها حجّة في ذاتها، وهذا ما يُثري دلالات الخطاب في الحِجاج، إذ "لا يخلو اختيار اللقب أو إطلاقُه من قصدٍ حجاجيّ، إذ لا يقصد به تصنيف الموصوف بالنَّظَر إلى السّمات التي تُشركُه مع العناصر التي ينتمي إليها فحسب، ولكنَّه يُعبّر غالبًا عن تحديد موقفه منه، وطريقة الحكم عليه ومعالجته"(٣).

ثمَّ يتلو هذا النّداءَ استفهام، وهو أيضًا من الإنشاء الطّلبي، والاستفهام من أنجَح أنواع الأفعال الكلاميَّة حجاجًا، حيث "إنَّ طرح السُّؤال يُمكن أن يضخّم الاختلاف حول موضوعٍ ما إذا كان المُخاطب لا يُشاطر المتكلّم الإقرار بجواب ما، كما يُمكن أن

---

(١) يُنظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، باب خصائص الكلمة الحجاجيّة، ص٨٩ – ٩٠.

(٢) نفس المرجع، ص٩٠

(٣) يُنظر: عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيّات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة (لبنان)، ٢٠٠٤، ص٤٨٧.

يُلطّف السُّؤال ما بين الطّرفين من اختلاف إذا كان المُخاطب يميلُ إلى الإقرار بجواب غير جواب المُتكلّم"[١]. وهو ما من شأنه الزيادة في الطّاقة الحِجاجيَّة للخطاب كلّه.

ويتكرَّر النّداء والمنادى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ عاملا مُشتركا، ويتكرَّر كذلك الاستفهام، وبعض الوحدات اللسانيَّة: يضلّون، الحقّ، أنتم. ممّا يُكسب الخطاب إيقاعًا حِجاجيًا خاصًّا، فليس الإيجاز محمودًا دومًا، بل لقد قيل: "ما تكرَّر تقرّر". ففي التّكرار تنبيه وتأكيد، وتخصيص على التَّخصيص ومن ثَمَّ كثافة العامليَّة الحِجاجيَّة التي يتَّضح من خلالها المفهوم من الخطاب، إذ "ليس هناك تكرار أو ترادُف في الحِجاج"[٢].

إنَّ وضعيَّات التلفّظ حسب التّداوليّين اليوم تُساعدنا على إدراك حجاجيَّة النص، والآية كما رأينا ردّ على أهل الكتاب، وكشف لما يُضمرونه من كيدٍ للفئة المُؤمنة، ومن ثمَّ فإنَّ الاستفهام هنا إنّما هو للذمّ والتَّقريع والإنكار، والإنكار في نفسه تكذيب ودحض لمسلّمات المتلقّي، وهو جوهر الحِجاج.

كما تظهر حِجاجيَّة الاستفهام في أنَّه أكثر استدراجًا لعواطف المتلقّي، ليُسلم للحق ويُقرَّ به وبما جاء في القرآن الكريم.

إن محاولة تعيين العامل المُشترك (Facteur Commun) حجَّة عليا (Argument super donnée) وباقي التّخريجات بمثابة الحُجج الدّنيا المتفرّعة عن ذلك العامل، إنّما هو بحث عن البنية الحجاجيَّة العامَّة للخطاب، إذ لا قيمة للخطاب الأوّل إلا بما يليه، لأنّ العلاقة التي تجمعهما هي علاقة العام بالخاصّ، وهذا الانتقال من العام إلى الخاصّ هو في حدّ ذاته آليَّة حجاجيَّة ناجعة، مثلما يبينه الشكل التالي:

[يَا أَهْلَ الْكِتَابِ] — (لِمَ) —
[تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ] .
[تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ] .
[وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] .

(١) نفس المرجع، ص٤٨٣ – ٤٨٤ .

(٢) عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيّات الخطاب، ص٤٩٣.

وبالإضافة إلى حِجاجيَّة هذا العامل المُشترك ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ و(لِمَ) في مستوىً أقلّ فإننا نجد الحِجاجيَّة ماثلة أيضا فيما يتعلّق به من استرسال (Continuum) في بقيَّة الخطاب، وذلك بالنظر لسريان العمل الحِجاجي للعامل المُشترك في كامل الخطاب، ولاحتوائه بدوره على طاقة حِجاجيَّة شكلت مع العامل المُشترك تسلسُلًا حِجاجيًا. كما يُؤكّد ذلك ديكرو وأنسكمبر في قولهما: "إنّ التّسلسُل الحجاجي المُمكن في الخطاب إنّما يكون في البنية اللغويّة لا المضامين"[1].

إن الطّاقة الحِجاجيَّة التي قلنا إنّها مُحتواة في الخطاب إنّما من أهمّ مصادرها أفعال الكلام التي قررها التداوليون، فتلك الأفعال الكلاميَّة التّقريريَّة يتجاوز دورُها دور المسُاعد في تركيب الخِطاب إلى اعتبارها حِجاجًا بعينها.

أمَّا على مستوى التَّركيب فللجُمل الإسميَّة دورٌ لا يُنكر في الحِجاج، فقد جاءت الجُملة الأولى فعليَّة تقريريَّة موجّهة للمؤمنين، ولكنّها أتبعت بجملتين اسميَّتين في إطار الخِطاب، وبطاقة حِجاجيَّة كبيرة، لأنّها موجّهة لـمُخاطب آخر هم أهل الكتاب، وهذه الهيمنة للجُمل الإسميَّة إنّما هي لغاية دلاليَّة، وقصدية حجاجيَّة، ووظيفة تعليليَّة وإقناعيَّة في ذات الوقت[2]

إن الجُمل الاسميَّة أكثر تعبيرًا عن الحقائق الثّابتة، مثلما هي حال أهل الكتاب وما دأبوا عليه، ومثل ظهور الحق، وثبوت نبوَّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وهذا النوع من الجمل أكثر استعمالًا للتأثير والإقناع من الجمل الفعليَّة.

كما أن للعلاقة الحمليَّة داخل الجمل: بين (ما) و(إلاَّ)، في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ علاقة قصريَّة، وهو بتعبير التّداوليّين عامل حجاجي (Operateur argumentatif) تتقلَّص معه الإمكانات الحجاجيَّة، ليؤدّي بعد ذلك إلى نتيجة واحدة هي إضلال أنفسهم.

(1) Ducrot (O) et Anscombre (J.C), L'argumentation dans la langue, p09.

(٢) ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص٥٠٢.

يضافُ إلى ذلك ما يُؤدّيه التّعريف أو "التّخصيص عبر التّعريف" من دور حجاجي في الخطاب، فالخطاب يضع المتلقّي عبر هذا التّعريف في مواجهة مباشرة مع المفاهيم: "أَهْلَ الْكِتَابِ، آيَاتِ اللَّهِ، الْحَقَّ " وفي ذلك فعل حجاجيّ موجه إلى أهل الكتاب.

من خلال ما سبق يتضح أن الثّلاثي: المعنى المُعجمي، الحصر، والتّعريف، يحقق عامليّة حجاجيّة مهمّة في إيصال المفهوم، وعلى الأخص أن هذا الثّلاثي قد صُبَّ في قالب عام أقدَر من غيره على إثبات الحقائق وإبراز المبادئ، المتمثل في الجُمل الاسميَّة.

إن هذا التعدّد في الحُجج من شأنه أنّه يؤدّي بالمتلقّي إلى التّسليم شيئًا فشيئًا، ويستدرجه إلى التخلّي عمّا كان يعتقد مرَّة بعد مرَّة، كما حدث لبعض اليهود ولكثير من النّصارى، وهو يُدرك أنّها ليست أخبارًا ولا أسئلة يجهلها المتكلم ويريد إجابة عنها، ومن ثمَّ فإن القصدية (intentionnalité) أيضًا ساهمت في حجاجيّة الخطاب، وأن الأمر لم يكن مناط الصّياغة والمعنى الحرفي وحدهما.

بقي لنا أن نُشير إلى ظاهرة لغويَّة أخرى تفرض حُضُورها في تكثيف العامليَّة الحِجاجيَّة للخطاب هي ما يُسمّى بالبديع، متمثلا في الطّباق، في قوله تعالى: ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ والطّباق المعنوي في قوله: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ و﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾، لأنّ الشّهادة إقرار وإظهار، والكفر ستر وجحود، والتّجنيس المماثل [أي الجناس التَّام] في (يُضِلُّونَكُمْ/ وَمَا يُضِلُّونَ)"[1]. ذلك أن البديع لا يقتصر دوره على الوظيفة الشّكليَّة، بل إن لأدواته دورا حِجاجيا هدفه الإقناع، وليس مُجرَّد زخرفة للخِطاب. إنه يهدف إلى الإفهام بالدرجة الأولى، وذلك يبدو جليا في الحِجاج بالثّنائيَّات كما رأينا في قوله (الحقّ / الباطل) – (لم تكفرون / وأنتم تشهدون) – (يضلّونكم / وما يُضلونكم).

---

(١) أبو حيّان الأندلسي، تفسير البحر المُحيط، تحق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي أحمد معوض، ط١، مكتبة العبيكان (الرّياض)، ١٩٩٨، ج٢، ص٥١٧.

الخاتمة:

في ختام هذا البحث نقف على جملة من النتائج في إطار الدرس الحجاجي المعاصر، باعتبار أن ما نحوناه في هذا البحث هو استثمار نتائج الدراسات النظرية البلاغية المعاصرة في تحليل الخطاب القرآني الذي يعد محور البحوث البلاغية العربية، في إطار الوسطية الإجرائية التي تهدف إلى إقامة حوار معتدل بين النظرية والنصوص.

يمكننا القول نظريا إن الحجاج اليوم صار فنا تأثيريا، وتقنية خطابية، تستهدف الإقناع غير الملزم، وهو ما يتمثل الخطاب في شموليته؛ نصا وسياقا، حيث تتصل المكونات الأساسية لحقلي البلاغة والحجاج، وأنه بموجب هذا التصور الجديد تخلصت البلاغة من التبعية التاريخية للخطابة، وتحررت في الوقت ذاته من الاستدلال وصرامته.

ثم إن من أهم النتائج النظرية أن الحجاج حوار غايته حصول الإقناع، وليس إكراها على الاقتناع، إنه إحلال لمبدأ الاختيار واستبعاد لمنطق الإجبار، فهو ضد العنف بكل مظاهره، لأنه يحتمل التعدد والاختلاف، ولأنه نتيجة للمناقشة وقابلية التسليم لا الإكراه.

كما وقف بحثنا إجرائيا على مواطن إحداث التأثير النفسي في متلقي النص القرآني، من خلال أسلوب الإطناب الذي يميز الآيات المدنية، وغايته الإقناع، خلافا للنصوص المكية التي تتميز بالإيجاز في الأسلوب بقصد إحداث الانفعال العاطفي، وأيضا من خلال مخاطبة المخالفين من النصارى واليهود بصفات (أهل الكتاب) و(بني إسرائيل)، بوصفها صفات ذات حمولة حجاجية، تعبر عن موقف من الموضوع، وبصفة أخص حينما تتبع في النص القرآني بالتذكير بالأفعال التي تبرز نوعا من الناقض الصريح بينها وبين ما استفتح به من صفات، مما يضع المتلقي بين صورتين تتطلبان الانتباه المؤدي إلى الاكتشاف والاعتراف، ويحدد من زاوية أخرى أيضا موقف

المتكلم من تلك الوضعيات ومن أصحابها، ومن ثم التوجيه إلى استحقاق المخاطَب المصرّ للأحكام الواردة في الخطاب.

ووقفنا عند بعض المظاهر الأسلوبية وما لها من تأثير حجاجي، عبر ما تحدثه في نفس المتلقي من ارتياح وانفعال واستدراج خفي، وبينا الطاقة الحجاجية الكامنة فيها، وبينا كيف أن غايتها التأثير وإحداث الانفعال في المستمع.

كما خلصنا إلى أن الخطاب القرآني من الناحية الحجاجية يقوم في عمومه على المتقابلات، وعلى الوظائف التأثيرية، من خلال عينات من الألفاظ والصيغ التعبيرية التي تنهض بدور حجاجي بارز، كالنفي، والاستفهام وأدوات الربط المختلفة، والتوجيهات الحجاجية، والعدول الكمي بالزيادة وبالنقصان، وهو ما يدعونا إلى دعوة الباحثين إلى التعرف أكثر على هذه الوظائف الكلامية في الخطاب القرآني. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع

ابن عاشور محمّد الطّاهر، تفسير التّحرير والتَّنوير، ط١، الدّار التّونسيّة للنّشر (تونس)، ١٩٨٤.

ابن منظور، لسان العرب، ط٣، دار صادر (بيروت)، ١٤١٤هـ.

أبو حيّان الأندلسي، تفسير البحر المُحيط ، تحق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي أحمد معوض، ط١، مكتبة العبيكان (الرّياض)، ١٩٩٨

البغوي، الحُسين بن مسعود، تفسير البغوي (معالم التّنزيل)، تحق، محمّد عبد الله النّمر وآخرين، ط١، دار طيبة للنّشر والتَّوزيع (الرّياض)، ١٩٨٩

بن يامنة سامية، الاتّصال اللساني بين البلاغة والتَّدَاوليَّة، مجلَّة دراسات أدبيَّة، (الجزائر)، العدد١، ٢٠٠٨

خليفة بوجادي، في اللسانيّات التّداوليَّة مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط١، بيت الحكمة للنشر والتوزيع (الجزائر)، ٢٠٠٩

الزّمخشري، جار الله، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تحق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي أحمد معوّض، ط١، دار الكُتُب العلميَّة (بيروت)، ١٩٩٣

سامية الدّريدي، الحِجاج في الشّعر العربي القديم، من الجاهليَّة إلى القرن الثّاني للهجرة، بنيته وأساليبه، ط١، عالم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، وجدارا للكتاب العالمي (الأردن)، ٢٠٠٨

الطّبري ابن جرير، تفسير الطّبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحق: محمود محمّد شاكر، ط٢، مكتبة ابن تيميّة (القاهرة)، دت.

طه عبد الرّحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط١، المركز الثقافي العربي (بيروت)، ١٩٩٨

عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، ط٢، دار الفارابي (لبنان)، ٢٠٠٧.

عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيّات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة (لبنان)، ٢٠٠٤

محمد سالم محمد الأمين الطّلبة، الحِجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، ط١، دار الكتاب الجديد المتحدة (لبنان)، ٢٠٠٨

Ducrot (O) et Anscombre (J.C), L'argumentation dans la langue, Editions Mardaga (Bruxelles), 1983

Oliver reboul, introduction à la rethorique, 2ème édition, Presses universitaires de France C, (France), 1994.

سيميولوجيا الصورة الإشهارية ودينامية التأويل

د. مصطفى حفاظ

أستاذ باحث في جامعة سيدي محمد بن عبد الله، المغرب

البريد الإلكتروني: haffad.mustapha@gmail.com

معرف (أوركيد): 0000-0002-2044-5379

الاستلام: ٢٦-١٠-٢٠٢٠ القبول: ١٢-١٢-٢٠٢٠ النشر: ٢٧-١٢-٢٠٢٠

الملخص:

يحاول هذا المقال أن يرصد بعمق أهمية الصورة وما تعُج به من علامات لامتناهية تشتغل وفق كون من السيرورات الدلالية، يكون فيها الفعل التأويلي محكوما بمرجعيات تغني الفعل التدليلي، بصفته مظهرا مُهما لمفهوم السيميوزيس البيرسي، وهذا ما يُثبت أن الانتقال من مؤول إلى آخر يكسب الصورة أو العلامة معانٍ لا حصر لها فيمنحها بذلك سلطة هائلة تجعلها تقول ما لم تتعود قوله.

وإذا سَلَّمْنَا بانتماء الفعل الإشهاري لنظرية الاتصال، فإننا لا بد من عَقْدِ صِلَةٍ وطيدةٍ بينه وبين الأنساق اللسانية وغير اللسانية بمكوناتها البصرية الأيقونية، وباتخاذه من هذه الازدواجية أدَاةً إبلاغية يظل الخطاب الإشهاري ثمرة من ثمرات علوم الإعلام والاتصال ورافدا من روافد العلوم الإنسانية والحقول المعرفية، ومُخْتَصَرُ ثَوابت الإشهار هو إنجاز الرسائل بما يُماثِلُ إنجاز العبارات اللغوية، لخدمة أهداف اقتصادية وسياسية وأحيانا أيديولوجية، مستندا في ذلك إلى استراتيجيات محكمة في توصيل المعلومات على شكل إلحاحات مدعمة بوسائل وآليات إقناعية موسومة بخصائص ثقافية أنثروبولوجية.

الكلمات المفتاحية:

الصورة الإشهارية، الدلالة، التداول، السيميولوجيا، التأويل.

The Semiology of the Advertising İmage and the Dynamics of Interpretation

Dr. Mustapha Haffad

Assistant Professor, University Sidi Mouhamed Ben Abdellah, Morocco.

E-mail: haffad.mustapha@gmail.com

Orcid ID: 0000-0002-2044-5379

Received: 26.10.2020 Accepted: 12.12.2020 Published: 27.12.2020

Abstract:

This article attempts to analyze in depth the advertising image between interpretation and semiology. It aims at unveiling different mental processes that trigger the performance act of the customer. Therefore, the focus of the study is on the image as an authority which contains colors, forms, language… since the contemporary advertising discourse has become a laboratory of various fields of knowledge, for instance, computer science, physics, infography and economics. Thus, the objectives of the research are the following :a). highlighting the significant role of cognitive science in clarifying the mental operations while receiving the message of the advertisement .b). identifying neural activities and various important human behaviors .c). exposing the areas which control and explain linguistic and non-linguistic operations in the brain. The research has resulted in unveiling the role of contemporary methods in apprehending the advertising discourses without overlooking the semantic method as a scientific theory for discourse analysis.

Keywords:

The advertising image, semantics, pragmatics, semiology, interpretation.

Reklam Görselinin Semiyolojisi ve Yorumun Dinamikleri

Dr. Öğr. Üyesi Mustapha Haffad

Sidi Mouhamed Ben Abdellah Üniversitesi, Fas

E-posta: haffad.mustapha@gmail.com

Orcid ID: 0000-0002-2044-5379

Geliş: 26.10.2020 Kabul: 12.12.2020 yayın : 27.12.2020

Özet:

Bu çalışma, görseli ve içerdiği anlamsal süreçlerdeki, bir evrene göre çalışan sonsuz işaretleri derinden gözlemlemeye çalışıyor. Bu anlamsal süreçlerin içinde yorum eylemi, semiyoloji kavramının önemli bir yönü olması itibariyle anlamsal eylemi zenginleştiren referanslara mahkum olur. Bu yorumlayıcıdan diğerine geçişte görselin veya işaretin sınırı olmayan anlamlar kazandığını ispatlamaktadır. Böylece bu ona, söylemeye alışık olmadığı şeyleri söylemesi için muazzam bir güç verir .

Reklam eyleminin iletişim teorisine ait olduğunu kabul edersek, bu eylem ile dilbilimsel olan ve olmayan sistemler arasında ikonik görsel bileşenleri ile yakın bir bağlantı kurmamız gerekir. Bu birleşimi bir bilgilendirme aracı olarak alırsak, reklam hitabı, iletişim ve reklam bilimleri arasında bir meyve ve insan bilimleriyle bilişsel alanlar arasındaki kollardan biri olarak kalır. Reklam değerlerinin özeti, iktisadi, siyasi ve bazen ideoloik hedeflere hizmet etmek için dilbilimsel ifadelerin tamamlanmasına benzer bir şekilde mesajların elde edilmesidir. Buna dayanarak, antropolojik kültürel özelliklerle işaretlenmiş araçlarla ve ikna edici mekanizmalarla desteklenen baskılar şeklinde bilgi iletişiminde sağlam stratejiler vardır .

Anahtar Kelimeler:

Reklam Görseli, Anlam, Edimbilim, Göstergebilim, Yorum.

تقديم:

تُمثِّل الصورة ضمن مجتمعنا الحديث؛ نظاما تمثيليا تلعب عبر سلطتها دور الوساطة، إذ يكاد النسق اللساني يقتصر على المخاطبات الإدارية وعلى الطباعة والنسخ، إلى درجة قلَّت فيها القراءة، بحيث يكفينا أن نتابع الكَسَادَ المهول لمبيعات الكتب، وارتفاع مبيعات المجلات والدوريات التي تحمل بين ثنياها الصورة وما تَسْتَنْجِد به من تسلية وترفيه.

يذهب كريستيان ميتز (Christien Metz) إلى "أن الصورةَ امبراطورية مستقلة أو علما قد يستغني عن التواصل مع ما يحيط به"(١). ويقصد بقوله؛ أن ما يميز نسقها الأيقوني هو تأسيسها لأنظمة دلائلية متعددة لا يمكن المسك بناصيتها دون الغوص مليا بجانبها الثقافي، والانتقال من دلالتها التضمينية إلى التقريرية.

وحسب منظور كوتي (Gautier) : "فالصورة لعبة تمويهية اسْتيهَامية حاملة لبصمات قوية لأصولها الفردية والتاريخية"(٢)، إذ إِنَّ الصورةَ على هذا المنحى قد تُضْمِرُ أكثر مما تُفصح.

إن الرأي الغالب؛ كون الصورة أداة لإثراء اللغة لا أن تحل محلها، لكن مع التطور التكنولوجي اللافت أصبحت الكلمات مصاحبة للصور في شكل عناوين فرعية تُعين متلقيها على فك شفرة معناها.

١.الصورة الإشهارية بين الإدراك والدلالة:

بما أن الصورة الإشهارية هي نص تتحكم فيه عدة محددات انطلاقا من قصديات توجد خارجه، فإن وظيفة الأساليب البلاغية المستعملة هي الإقناع وخلق الرغبة والإثارة لدى المتفرجين، ودفعهم للحلم بعوالم متخيله يخوض فيها المخاطب ليلبي أشياء يصعب الوصول إليها في العالم الحقيقي، فالإشهار يستند لبناء هويته الحجاجية

(1) Metz.C.(1970). « Au-delà de l'analogie de l'image » communications Seuil, N15, P.1-7.

(٢) الهجاني، م. (١٩٩٤)، " التصوير والخطاب البصري"، مطبعة الساحل الرباط، ط١، ص٦٧.

إلى مجموعة من الصيغ والسبل الهادفة لإقناع المرسل إليه ودفعه لإنجاز فعل الشراء[1]. فالصورة الإشهارية إذن، هي مجموعة من التمثيلات الحاملة في خضمها تقنيات بلاغية " فإذا كان للإشهار هدف ثقافي فهو يعود لصفاء وغنى بنيته البلاغية بما يجب، ليس لما يمكن أن يحمله معه من معلومات صحيحة لكن لجزئه المتخيل" [2].

يتبين على أن الصورة الإشهارية هي إبحار في عوالم متخيلة وليست حقيقية، وسبب تأثيرها على الآخر هو استعمالها لأساليب بالغة في الإقناع سواء كانت لغتها تقريرية أو مضمرة الدلالات، استنادا إلى ذلك فإن تنوع العلاقات بين ما هو مرئي وما هو مدرك، هو ما يغني الفعل التأويلي، ويفتح أفق انتظار المخاطب.

إن إدراك الصورة (الموضوع) حسب بيرس (Peirce) لا يستقيم إلا بوجود مؤول باعتباره خزانا للأفكار، كما أن الدلالة لا تتشكل إلا بتفاعلها بمؤول يثيرها، وبذلك فالوجوه البلاغية هي وجوه تستثمرها الجهة الباثة بأبعادها اللسانية من لغة وأيقونات من أجل الحجاج والإقناع.

٢.المعنى والإدراك داخل الصورة:

تعد الصورة كيانا تمثيليا يتشكل من خلال تجميع وتوليف مقاطع وأجزاء فيما بينها، من أجل صياغة وتشكيل بنيات تعبيرية تامة لها ما يُعادلها على مستوى المحتوى. فالصورة نص –وككل نص- لا يدرك ولا يؤول إلا من خلال قابلية تمفصله إلى مقاطع ووحدات، يقود التركيب الخاص بينها إلى هذا الكون الدلالي أو ذاك، فقوة الإبلاغ البصري – من خلال الصورة – تكمن أساسا في القدرة على الجمع والتوليف بين أنساق وسجلات متباينة الخصائص والمرجعيات، داخل خطاب موحد منسجم ومتنوع المضامين والدلالات.

(١) حدري م، مكونات الخطاب الإشهاري من التوليد الى التأويل، ص٨٣.

(2) Durand,J.« Rhétorique et image publicitaire, l'analyse des images » Seuil 70

إن تحديد معاني الصورة وإعادة بناء قصديتها مرهون بالكشف -داخلها- عن أشكال التركيب والتنظيم الخاص الذي تخضع له مختلف وحداتها وعلاماتها التعبيرية. فالتمييز بين مختلف المستويات المشكلة لخطاب الصورة، سيشكل خطوة إجرائية أساسية ستمكننا من الوقوف على أشكال البناء الدلالي لمنطق الإحالة البصرية. كون الصورة سيميولوجيا هي تركيب خاص يعود لوحدات وعناصر التمثيل الأيقوني من جهة، ويعود لنمط البناء التشكيلي من جهة أخرى، علما أن " الحدود الدقيقة بين التصويري وغير التصويري من الصعب تحديدها علميا"(١) إنها تمثيل لموضوعات اعتمادا على مكوناتها المختلفة، ببعديها الإدراكي والجمالي، وذلك راجع لخطابها المركب الجامع بين اللغة البصرية واللغة الطبيعية، حيث تتراكب الأقوال اللغوية والبصرية. الأمر الذي يضعنا أمام المستويات التالية:(٢)

- ✓ مستوى لغوي
- ✓ مستوى تشكيلي
- ✓ مستوى أيقوني يتشكل من موضوعات ذات بعد سوسيو ثقافي.

إن تشاكل هذه المستويات يساهم في بناء معنى الصورة ودلالتها، اعتمادا على اشتغال الأقوال والأيقونات محققة بذلك آلية في إقناع المتلقي بموضوع الصورة.

٣.الصورة وبناء الدلالة:

لا يمكن الحديث عن الصورة الإشهارية بعيدا عن العلامة البصرية لأنها محدد من محددات التدليل المرتبط بالثقافة وبنوع الأنموذج الاجتماعي، وهذا ما يجعل مستويات الدلالة في الصورة الإشهارية تشوبها مجموعة من التداخلات الدلالية وذلك راجع لوظيفتها التعيينية لكونها مضمون بصري أيقوني ولغوي لساني، حامل لمعنى ولواقعة إبلاغية "تمت بلورتها داخل إطار تتداخل فيه أسنن متنوعة منها الاقتصادي

---

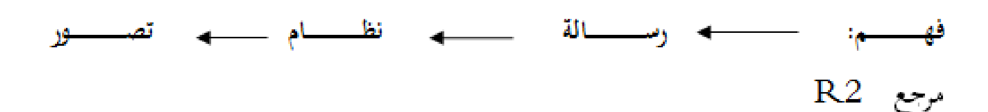
(1) Groupe ; Mu ; « Traité du signe visuelle » ;Editions, Seuil,1992 ;P :18

(٢) نوسي،ع،(2009)،" الخطاب الإشهاري بالمغرب استراتيجيات التواصل" منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الجديدة،مطبعة النجاح الدار البيضاء، ط١،ص:١٤٩ (بتصرف).

والسياسي والاجتماعي والنفسي، الخ"[١] ومن هنا تظهر صعوبة حصر معنى الصورة لأنه يدخل في تحديد معناها مجموعة من العوامل والمحددات.

بناء على هذا التصور؛ فالصورة تشتغل كسنن مشكل من علامات ممتلئة، إذ إنه لا يمكن إدراك ما تحمله من دلالة، إلا ضمن نظام كلي، كونها لا ترتبط بما هو خارج عنها، لكن الأمر متعلق بربط وتحديد انتماء كل عنصر منها إلى النسق الذي يدل داخله، وهنا تظهر أهمية الدال والمدلول في تحديد المعنى.

فمحور الرسالة أو موضوعها هو: العالم الحقيقي أو الخيالي، ويتجلى ذلك في المسار الذي يسلكه المستقبل في الفهم وهو كما رسمه بويتني bouitny[٢].





LN : اللغة الطبيعية

CO2 : تصور المستقبل

R2 : مرجع المستقبل

تأسيسا على هذا؛ تبقى الصورة الإشهارية أداة للتعبير والتواصل بنسقيها اللساني وغير اللساني، مادامت تنتج عدة إرساليات إبلاغية يستفيد منه المستقبل (المحتمل) وداخل مقام محدد؛ وهذا ما يرسم لذات التلقي انتظاراتها وآفاقها التأويلية. انطلاقا من السياق الحامل لخصائص ومحددات ثقافية، يمتلك الطرف المستقبل عدة تسنينات

(١) بنكراد، س "سيميائيات الصورة الإشهارية"، ص: ٣٦، "بتصرف "

(٢) الرايص، ن، (٢٠٠٧)، "نظرية التواصل واللسانيات الحديثة"، مطبعة سايس، ص:١٣٧.

لولوج عالم الصورة، وتأويلها وفك تسنيناتها المتنوعة[1]"واللعب بالسياق يمكن أن يكون الطريقة المثلى لتكسير أفق انتظار المتلقي بمفاجأته بصدمه أوبالسخرية منه"[2].

بهذا نجد أن للسياق أثر ا كبير ا على سلوك المستقبلين لأنه يستهوي مشاعرهم ويلهي أفكارهم، وقد يتنوع سياق الإشهار؛ وفي تنوعه قد يصاب المخاطب بصدمة قد تتعلق بثمن المنتوج أو بعواقبه، وقد يسخر منه ويستغل وقته لأنه كما يقول كورني(Cornu) يمتلك السلطة بواسطة المال ووسائط التواصل وبذلك سيتم إثقال معسكر الباث بشكل واضح (معلن + وسائط التواصل +إشهار) حيث تعود السلطة للمشهر (المعلن)[3].

يتبين هذا من خلال ذلك الفاصل الذي يفصل فلما ما؛ أو مقابلة رياضية؛ فتأتي الوصلة الإشهارية لتشد أنظار وأحاسيس الآخر بطريقة غير مباشرة. وتماشيا مع هذا السياق اقترح إيكو(Umberto Eco) ثلاثة مستويات من التسنين لفهم الدال الأيقوني أو العلامة البصرية داخل الصورة الإشهارية:

أ – التسنين الإيقوني: ويتعلق الأمر هنا بتلك الترجمة الذهنية بعد العملية الإدراكية للدال اللفظي وتحويله إلى دال بصري له شكله وبنيته في الواقع أو بعبارة أخرى إعطاء اللفظ مضمونه، أو كما يقول الجرجاني اللفظ كالجسد والمعنى كالروح[4].

ب- التسنين الإيقونوغرافي: وهو مجموع التمثيلات البصرية التي تلبس للفظ مدلولا مُسننا بالتعاقد الاجتماعي، مثلا عند ذكر لفظة "السلام" يمثل للذهن فوريا "طائر الحمام"، وبهذا نلبس السلام بنية وشكل الحمام، "ويشتمل إما على تشكيل صوري ذي

---

(١) حدري م. " مكونات الخطاب الإشهاري" ص: ٦٧، بتصرف.

(٢) Geneviève C, (1990) « sémiologie de l'image dans la publicité » p35

(٣) المرجع نفسه، ص: ٣٥

(٤) بنكراد،س."سيميائيات الصورة الاشهارية"- الإشهار والتمثلات الثقافية- إفريقيا الشرق، الدار البيضاء "،ص:٣٨.

صبغة تاريخية" عصابة سوداء" على العين تعني قرصان، الشخص المصلوب الذي يحيل على المسيح، وإما على تشكيل بصري مرتبط بحقل الإشهار ذاته(١).

ح - **أما المستوى الثالث**: يعود إلى حقل البلاغة "أي" إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ(٢)؛ أي محاولة التعبير بطرق يستهويها العقل ويجدها سهلة من حيث الفهمُ والإدراك.

أو كما جاء في أسرار البلاغة للجرجاني، تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى التأثير في صورتها وأجراس كلمها بعذوبة النطق وسهولة اللفظ والإلقاء والخفة على السمع(٣)، ويتجلى هنا دور البلاغة في الجمالية التي يلبسها اللفظ قصد التأثير في المستمعين.

٤.الصورة وعمليات الإدراك:

تبقى بنية الصورة بنية مزدوجة مشكلة من وجهين:

- **الوجه المادي المرئي**؛ وهو المحدد الرئيس من خلال الوحدات الطباعية وانطلاقا من تسنين سابق، باعتباره المنطلق الإدراكي وهو ما يشكل كذلك مستوى التعبير(٤).
- **الوجه الذهني المجرد**؛ وهو تدعيم للمستوى الأول، ويشكل انطلاقا من مجموع الأحاسيس والقيم المجردة أو هي خَرْج للدال (المدلولات) وتتشكل انطلاقا من المستوى الأول الفيزيائي عندما يخرج الصوت من جهة المتكلم عبر الهواء مخترقا مدخلات (Input)المستمعين، -وهي المنطقة السمعية المدركة للأصوات- إلى

(١) المرجع نفسه.

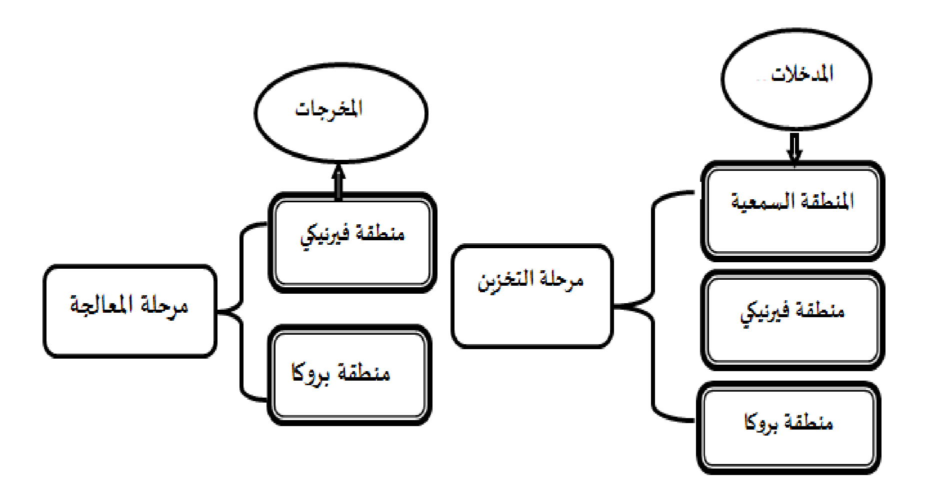
(٢) السمرائي، م (١٩٨٤)، "تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية"، الدار العربية للعلوم- ناشرون المكتب الإسلامي للطباعة والنشر،ط١، ص:٥٦.

(٣) الجرجاني، ع،(١٩٩١)، "أسرار البلاغة"، مكتبة الخانجي، ط١، ص: ٩.

(٤) حدري، م" مكونات الخطاب الاشهاري"، ص:٣٩.

منطقة فيرنيكي(Wernicke) وصولا إلى منطقة بروكا (Broca) المسؤولة عن الإنتاج ونمثل لها بالخطاطة التالية:

المثال (١): السيرورة الذهنية أثناء عمليتي الفهم والإنتاج



استنادا إلى هذا القول؛ فالصورة ملفوظ بصري بالغ التركيب والتداخل، لذا فدلالتها ومعناها هو حصيلة اتساق واندماج مجموعة من المكونات والطبقات قصد الإمساك بناصيتها وإعادة بناء قصديتها على نحو مقبول.

تبقى دراسة الصورة وفهمها فهما صحيحا مرتبطة بنوع المؤول؛ فقد يختلف تأويلها من شخص لآخر لأنها تحمل في خضمها مجموعة من الإيماءات والإيحاءات المتجلية في الألوان ونوعية الصورة، وقد يكون تأويلها أيضا مرتبط بثقافة معينة؛ لأن مدلوله نتاج تأليف لمجموعة من المدلولات، من حيث إن هناك فرقاً بين الجلوس على كرسي والجلوس على أريكة؛ فالكرسي خاص في غالب الأوقات بالعمل، أما الأريكة فالراحة، والضوء الخافت على عكس الضوء الساطع يريح الأعصاب ويهدئها والجريدة تختلف عن الكتاب، فالكتاب يوحي بالجدية أما الجريدة فهي لتزجية الوقت.[١]

(١) بنكراد، س، "سيميائيات الصورة الإشهارية " ص: ٣٢، نقلا عن:
.Barthes ; (Seuil, 1985) L'Aventure,Sémiologique

من هذه الزاوية، فمعنى الصورة الإشهارية ليس موجودا في الواقع الخارجي، لكن تنظيمها وتشكيل أبنيتها هو الذي يولد المعنى.

لا يمكن للصورة أن تتحول إلى نص إلا من خلال عملية انتقاء مزدوجة؛ انتقاء العناصر التي يجب أن تظهر في الصورة، وانتقاء العناصر التي يجب أن تختفي منها[١]؛ أي اختيار ما يمكن أن يُسهم في تكوين النص، وكذلك ما يحضر داخل الصورة، بمعنى أن الصورة وليدة الإدراك البصري أو ما يسمى بـ"الذاكرة المرئية (visual memory) فلا شيء موجود خارج دائرة النظرة، ولاشيء له دلالة خارج ميكانيزمات التفاعل بينها وبين ما هو موضوع للنظر. لذا فإن التفاعل بين "النظرة " و"بين" معطيات التجربة الواقعية هو وحده الكفيل بتحويل الإدراك البصري إلى نموذج[٢]، فالنظرة هي المحرك الأساس للمعنى، فبعد الإدراك يأتي الفهم لأنه هو المنتج لكل زوايا الرؤية. فكل شيء وكل وضعية تدخل إلى الصورة باعتبارها موقعا داخل نسقها الأصلي الذي يولد دلالتها. ويبقى المعنى نتيجة اختراق إنساني لعالم الأشياء.

فالاستعمالات الرمزية والإيحائية وربما الوظيفية أيضا هي التي تحدد العمق الدلالي للشيء[٣]، فالشيء لا يحيل على كلمة وليس مساويا لها إنه من حجم الجملة أو ما هو أكبر منها[٤].

ورغم كل هذا تُطرح عدة مشاكل على مستوى تسنين الصورة وتَدْلِيلها، لأن مستوياتها الدلالية تبقى وليدة عدة انزياحات؛ إذ كيف تنشأ الدلالات المباشرة

---

(1) St Gouttier, G.(1986) « vingt leçons sur l'image et le sens »، Edilig; 1re édition, paris.

(2) Groupe. Mu.(Éd Seuil, 1992.) « Traité du signe visuel pour une rhétorique de l'image », p 89.

(٣) بنكراد، س،"سيميائيات الصورة الإشهارية، مرجع سابق"، ص: ٣٤.

(٤) يرى بارث أن صورة المسدس أو وجوده العقلي لا يتحددان لسانيا كمعادل لكلمة :مسدس فأقل وحدة لسانية تكشف عنه هي،هذا المسدس ينظر سيميائيات الصورة الإشهارية" بن كراد، س، ص:٣٤.

والدلالات الاحتمالية داخل الصورة؟ وكيف يمكن بناء عالم دلالي منسجم انطلاقا من الجمع بين عناصر مختلفة؛ أي ربط الدلالة بالتعاقد الاجتماعي.

لهذا يعتبر الإدراك والإنجاز اللغويان إجراءين معرفيين معقّدين؛ لأن اللغة لا يمكن أن تكون إلا قدرة خاصة بالإنسان مادامت هي الوسيلة الأمثل للتعبير عن الفكر، ومادام الإنسان المحقق لها جوهرا "مفكرا" قادرا على إدراك ما يجعل ذاته مختلفة ومتميزة عن موجودات العالم الخارجي، واعتبارا لذلك فإنها تدخل في علاقة تفاعلية مع النشاطات المعرفية لكل من الإدراك والتخزين في الذاكرة.

على هذا المنحى تبقى دراسة مسارات المعنى وإدراكه وإنجازه، داخل العملية التواصلية، تستلزم العديد من المقتضيات اللسانية والمعرفية وفق ما هو مبين في الخطاطة التالية:(١)

المثال (٢): خطاطة توضيحية لمسارات المعنى و إدراكه

(١) بوعناني، م ندوة الرشيدية تحت عنوان" التواصل اللغوي بين المقتضيات اللسانية والمعرفية"

تحليلا لهذه الخطاطة؛ يتضح أنه انطلاقا من مجموعة من المعارف خاصة منها الصوتية والصرفية والدلالية والتداولية يتسنى للفرد أن يدرك وينجز خطابات ويفهم عدة رسائل من وجهة نظر مقتضيات لسانية، إلا أنه لا يمكننا أن نقتصر على ما هو نظري، لهذا نخضع لمقتضيات معرفية قصد فهم تلك التفاعلات الطارئة في أذهاننا، وفق مسارات بالغة التعقيد والضبط؛ وتؤكد معطيات علم التشريح والفيزيولوجيا وباثولوجيا اللغة؛ خصوصية الانتظام الحقيقي لكل مكونات الجهاز العصبي لهذا نقوم بتمثلات وفقها يتم فك التسنين ثم تخزين ما تم فهمه.

بناء على هذه السيرورات الذهنية؛ يمكن للفرد أن يطّلع على الحيثيات الكامنة وراء فهمه وإدراكه لمعنى الصورة أو الخطاب وفك تسنيناته.

إن الصورة إذن، بأنساقها وتشعبات معانيها تشِي بانتمائها لذلك الشكل الذي يتأسس وفق نظام لا يخضع لقواعد تركيبية صارمة، بحيث إن أي عنصر لا يفرض إدراكه قبل الآخر، إن الكل يتحرك ضمن شكل علاقات إدراكية متزامنة.

٥- إيحائية الخطاب الإشهاري وبنية التماثل الأيقوني:

يعتمد الإشهار أيضا على الخطاب الايحائي مُوَلِّدًا بذلك مجموعة من الدلالات الإيحائية التي تمثل قراءتها من طرف المستهلك سبيلا من سبل الإقناع المرتبط باستراتيجية الخطاب الإشهاري. حيث يرى–رولان بارث (Roland Brath) أن الخطاب الإشهاري يتميز بازدواجيته التي يكون فيها الخطاب التقريري الأول، بكليته، على المستوى اللساني بمثابة الدال بالنسبة للخطاب الثاني الإيحائي الذي يحيل على مدلول: جودة البضاعة المعلن عنها، والذي يحفز المستهلك على الشراء. لكن لماذا لا يكتفي الخطاب بالأمر بالشراء ببساطة؟ تجد هذه الازدواجية تفسيرها في كون الخطاب الأول يعمل على تحييد الثاني، وذلك بأن ينزع عنه الغائية المادية ومجانية الدعوة التجارية.(١)

(١) نوسي،ع، مرجع سابق، ص: ٢٧-٢٨.

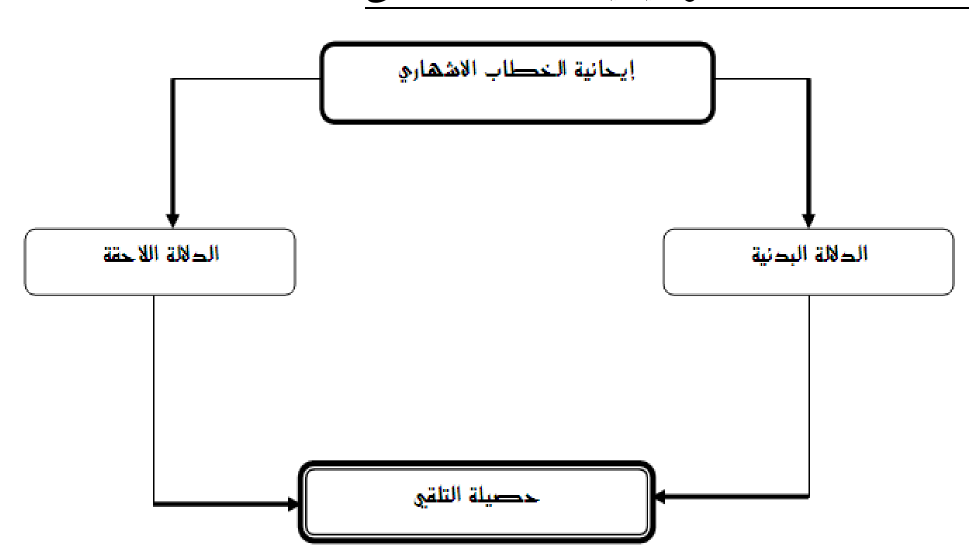
يبدو أن الإيحاء في النص الإشهاري يتماشى مع ما يعرف بالإشهار الجمالي غير المباشر، محتفيا في ذلك بالمستهلك وبعالمه لخلق عوالم مثالية خيالية هدفها تسريع عملية البيع، وتماشيا مع الطرح البارثي القائم على الازدواجية التي تعتبر التقرير في الاشهار هو الدال اللساني، و الإيحاء هو مدلوله أي تلك الصورة الذهنية التي يتركها المشهر بفعله الفزيولوجي، مقدما بذلك توضيحا على هذه الأخيرة بإدراجه لمثالين من السياق السوسيوثقافي الفرنسي، ومَثَّلَ لذلك لأحد زيوت الطعام، والنص الثاني لنوع من المثلجات، فهو يرى: لو أن أحد ساكنة المريخ، أو إحدى القبائل البدائية كهنود أمريكا الشمالية مثلا، وهو على دراية باللسان الفرنسي معجما وتركيبا وأصواتا فإنه بالطبع سيفك سنن الرسالة الحرفي، أي بعدها التقريري، ولكن سيغيب عنه الجانب الثقافي بفضاء الرسالة، و يرى في هذا من خصوصيات لغة الإشهار.[1]

يتضح من مثال بارث؛ أنه إضافة إلى الجانب التقريري المتجلي في اللغة هناك جانب آخر إيحائي يتجلى في توظيف ما يعرف بمعنى المعنى بتوظيف الصور البيانية والمحسنات البديعية، كأن نقول مثلا "فلان طويل النجاد، كثير الرماد" فالمعنى الأول التقريري يلوح إلى طول القامة، أما المعنى الايحائي فيعبر على أَنَّهُ وجيهٌ عظيمُ المَنْزِلَةِ مضياف والانتقالُ مِنْ كثرَةِ الرَّمادِ إِلَى كثرَةِ الإحراقِ، ومِنهَا إِلَى كثرةِ الطبخِ والخبزِ، ومِنهَا إِلَى كثرةِ الضيوفِ، ومِنهَا إِلَى المَطلوبِ وهُوَ المِضيافُ الكريمُ.. وبهذا ترتبط عتبة الإيحاء بعملية التأويل الدلالي الذي يحيل عليه الخطاب من كنايات واستعارات و توريات و مجازات...

---

(١) رولان بارث، "المغامرة السيميولوجية"، ت عبد الرحيم حزل، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، المغرب، ط١، سنة١٩٩٣، ص:٢٩.

المثال (٣): خطاطة توضيحية لمسارات المعنى

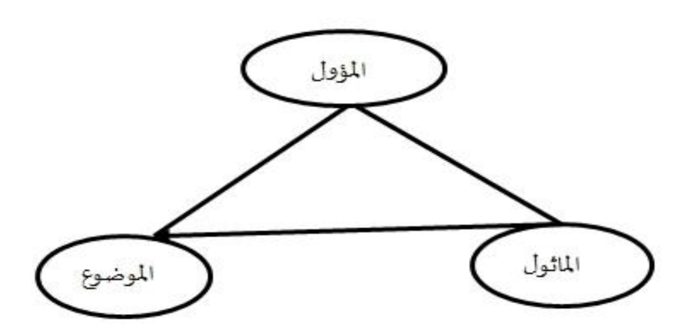


يطرح التماثل الأيقوني وجهات نظر متعددة، فهذا إليسيوفيرون (Veron Eliseo) يتساءل عن ماهية التواصل التماثلي ويستشهد في هذا بعدة باحثين من بينهم جاكوبسون، بيفان واتسلاويك (Bevin Jakobson et Wtzlawick) أنه "كل تواصل غير لساني" معتمدين في ذلك على معطى صعوبة التفريق بين المضمون في التواصل التماثلي والشكل المادي للرسالة، غير أن الباحث فيرون (Eliseo VERON) [١]، ذهب إلى القول بأن مفهوم التماثلية الأيقونية من شأنه أن يقودنا إلى خلط مفاهيمي كبير لأن الخطاب اللساني اللفظي وغير اللفظي لهما قاسم مشترك يتجلى في عدم تجسيدهما للموضوع الذي يقدمانه، غير أن ايكو أمبيرطو (Umberto Eco) يرى أن الأيقون يتشابه مع الموضوع الذي يحيل إليه مقتبسا هذا من شارل سندرس بيرس (Charles Sanders Peirce) [٢].

(1) Eliseo VERON : « l’analogie et le continu », communications, Seuil, N15, 1970, PP.55-56.

(2) Umberto Eco « sémiologie des messages visuels » op.cit P14.

ويمكن حصر هذا القول فيما يلي: **المثال (٤):**



غير أن هذا الحس الذي يبدو متفقا مع التحديد التماثلي للأيقون لا يغدو سوى تصور خادع، فسيميوطيقا بيرس ترى وجوب الصبغة التعينية (denotative) على الدليل الإيقوني في مثاله للصورة الشخصية (portrait)، في حين لا تشكل بالنسبة لإيكو سوى تحصيل حاصل؛ لأن الصورة رغم درجة تشابهها مع الأصل إلا أنها لا تمتلك الأبعاد الثلاثة، وحتى و إن تم قبول تعيين الإيقون حسب درجات إيقونية لمماثلته للموضوع في بعض مظاهره، فإن ذلك لا يؤدي سوى إلى تدمير مفهوم الدليل الأيقوني.[١]

بناء على ما سبق، يوضح إيكو أن المنظور البيرسي الثلاثي في معالجة الدليل لا يمكن الأخذ به بمعزل عن سياقه الاجتماعي، وعليه فالدلائل الأيقونية لا تمتلك خصائص الموضوع بل تتيح بعض ظروف التلقي المشترك على أساس التسنينات الإدراكية العادية، ويضيف على أن هذا التحديد لا يجب أن يؤدي إلى خلط مفهوم الدليل الأيقوني أو صورة كشيء يماثل ما هو كائن بالقوة في الواقع.

فإذا كانت المماثلة الأصلية تعني عدم الاتفاق والاعتباط الدليلي، بل تحفيزيته تجعله يستقي معناه من الموضوع الممثل بالاقتضاء التمثيلي، فإنه في هذه الحالة تظل المماثلة الأصلية للدليل تخلق بعض ظروف الإدراك الجمالي.

(١) المرجع نفسه.

إن ما جاء به بيرس حسب أمبيرطو إيكو هو تحصيل حاصل، إذ لا يمكن اعتبار الصورة هي محاكاة للموضوع الموجود في العالم الخارجي، حتى وإن تشابه الماثول مع دليله، مؤكدا في طرحه أنه لا حديث عن الدليل خارج السياق، وبهذا فالصورة أو الماثول لا تدل على موضوعها إلا بالنظر إلى بعض ظروف التلقي وحيثياته.

وفي هذا الصدد نورد لأهم الانتقادات التي قدمها إيكو (ECO) في مسألة التماثلية:

- ✓ قد لا تكون الإرسالية البصرية تماثلية بالمفهوم الشاسع على الأقل، إذ يتعلق الأمر بمسألة الصور " غير التصويرية" ومسألة الأيقونات البصرية.
- ✓ يمكن للتماثل البصري أن يقبل تغييرات توصف في الغالب بالتغييرات الكمية، أي ما يرتبط بدرجة الإيقونية عند مولز (Moles) التخطيطية (Schematisation) الأسلوبية (Stylisation).
- ✓ يقبل التماثل البصري التغييرات الكيفية، في حين يختلف باختلاف الثقافات.[1]
- ✓ إذا كان للدال (Signifier) خاصية مشتركة بشيء ما، فإنها ليست مع الموضوع(signified) بل مع النموذج الإدراكي للموضوع الذي يؤسس ويعرف انطلاقا من السيرورات الذهنية التي تقوم بها لتأسيس المنظور في استقلال عن المادة التي تتحقق فيها هذه العلاقة[2].

إن في استطرادنا لوجهات النظر هاته، نكون قد بينا بلا تماثلية الدليل الإيقوني في الخطاب البصري لأن التماثل هو التشابه، و عندما نقول التشابه فقد اختفت القصدية و مبدأ التحفييز(motivation) الذي لا يخلو منه أي خطاب بصري إشهاري كيفما كان نوعه، وذلك لكونه خاضع لدراسات عميقة وإحصائيات إذ إنه موجه إلى جمهور مستهدف بغرض التأثير قصد الإنجاز، فلا قصد بدون تحفيز و لا تحفيز بدون استجابة، خاصة و نحن أمام خطاب يستهوي الناس عبر إستراتيجية ترافق إنتاج البضاعة حتى استهلاكها مستمدا قوته في ذلك من خلال مخاطبة اللاوعي الجمعي لعامة الناس.

---

(1) Christian Metz, Au-delà de l’analogie de l’image » communications Seuil,P.8-9

(2) Umberto ECO, « pour une représentation du concept de signe iconique » communication, Seuil, 1987, P142.

خلاصة:

استنادا إلى ما تم طرحه يمكن القول؛ إن الأيقون هو علامة بصرية يتشكل ضمن مجموع العلامات المشكلة للصورة الإشهارية التي تُبني من خلاله نصوصها وعوالمها وأكوانها المتخيلة، وترجمة هذه التشكلات يتم بواسطة الانتقال من المادي المحسوس إلى المدرك المجرد، عبر المرور بأنماط التسنين المختلفة، بالاعتماد على مجموع المعارف والثقافات التي تنفتح عليها الإرسالية الإشهارية. فكل علامة تقود إلى معنى لا نهائي قد يؤدي إلى معانٍ لا حصر لها، تحيل إليها تلك الدوال السيميائية المشكلة للصورة باعتبارها بناءً مزدوجا.

إن قراءة الصورة وتأويل معناها هي إعادة للإنتاج الخارج نصي وفك سننه وتفعيل جل السياقات الممكنة باختلاف قُرَّائها وتنوعهم، ومن ثم تنفتح الصورة على التأويل الذي يبقى ضابطه هو فهم معنى الصورة وانسجام النص وترابطه الداخلي الذي يُوجب على المؤول الاحتكام في تأويل عناصر الصورة الموزعة إلى بنية كبرى، والتي من وظائفها إرجاع الصورة وتَمفْصُلاتها إلى البنية الأصل، مع كشف دلالات متوارية خلف المكتوب المراد فهمه.

المراجع

بن عياد، م. يناير/ يونيو (١٩٩٤)." من العلامة مطلقا الى الدليل اللغوي". المجلة التونسية لعلوم الاتصال عدد ٢٥.

بنكراد، س. (٢٠٠٢)" السيرورة السيميائية والمقولات"(قراءة في فلسفة بيرس السيميائية)مجلة مدارات فلسفية المغرب، العدد ٧.

بنكراد، س. (٢٠٠٧)." الصورة الإشهارية آليات الإقناع والدلالة". المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١

الرايص، ن.(٢٠٠٧)."نظرية التواصل واللسانيات الحديثة"، مطبعة سايس، فاس، المغرب،ط.١

السمرائي،م، (١٩٨٤)، "تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية"، الدار العربية للعلوم- ناشرون المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ط١.

الهجاني،م. (١٩٩٤)." التصوير والخطاب البصري"، مطبعة الساحل الرباط، ط١.

Barthes, R. (1985). « L'Aventure,Sémiologique » Editions du Seuil

Chamboredon, J.(Avril-Juin 1994).« Le parfum sémantique de l'image »: Note de marge, Ethnologie.

Durand.J. « Rhétorique et image publicitaire, l'analyse des images » Seuil .

Gouttier, G.(1986). « vingt leçons sur l'image et le sens », ÉDILIG. Paris

Groupe Mu.(Seuil, 1992). « Traité du signe visuel pour une rhétorique de l'image »française, nouvelle série, T. 24, No. 2, Usages de l'image.

Metz.C.(1970). « Au-delà de l'analogie de l'image » communications Seuil,N15.

الشخصيات السردية في رواية "سيدات القمر" للأديبة العمانية جوخة الحارثي مقاربة سيميائية

د. سعيد العموري

أستاذ مشارك بجامعة تيبازة، الجزائر

البريد الإلكتروني: said_amo@yahoo.com

معرف (أوركيد): 0000-0002-5809-7023

الاستلام: ٢٣-١٠-٢٠٢٠ القبول: ١٢-١٢-٢٠٢٠ النشر: ٢٧-١٢-٢٠٢٠

الملخص:

تعد الكتابة النسوية العربية والعمانية بصفة خاصة نموذجا لغنى السرد الروائي في العقود الاخيرة، بما اكتسبته رائداتها من قدرة على تشكيل فن روائي يقدم رؤى فكرية بفنية عالية تجعل من عناصر السرد تذوب في قالب فني يمتلك إمكانات التفاعل التلقياتي ويجعل من السرد النسوي العماني في مرتبة متقدمة من السرد العربي.

تلك كانت صورة هامة لتقديم قراءتنا لشخصيات سيدات القمر للروائية العمانية جوخة الحارثي، نقدمها مقاربة سيميائية للشخصيات السردية، نحاول من خلالها الوصول إلى معرفة تلك الرؤية التي تسيطر على السرد، وهي رؤية المرأة للرجل من خلال تقمص صوته الروائي السارد وتمثل حالاته الفكرية والنفسية، منطلقين من اعتبار الشخصية الروائية علامة سيميائية متحولة في السرد تتحدد في حقيقتها بمجموعة علاقات تشكيلية مع عناصر علامية في لغة السرد. ومن أجل ذلك حاولنا تطبيق أدوات القراءة السيميائية كالنموذج العاملي، وتتبع العلاقات السطحية على مستوى اللغة السردية والتعمّق في قراءة الشخصيات.

الكلمات المفتاحية:

سيدات القمر، السيميائية، الشخصيات، الرواية النسوية.

A Semiotic Approach to the Narrative Characters in the Omani Novel (Ladies of the Moon) by Joukha Al Harthi

Dr. Said Amouri

Associate Professor, Tipaza University, Algeria

E-mail: said_amo@yahoo.com

Orcid ID: 0000-0002-5809-7023

Received: 23.10.2020 Accepted: 12.12.2020 Published: 27.12.2020

Abstract:

This article studies the feminist novel in Oman with focus on "Ladies of the Moon" by Jokha Alharthi in which I conducted a semiotic study. Arab feminist novels have managed at the present time to present important feminist literature, concerned with the issues and peculiarities of the Arab women; that is why the novel "Ladies of the Moon" provided narrative characters with rich significance, interpretations, and references to reality, Arabic history and imagination. I tried to answer the question of how the female writer views the man and how she employs it as a semiotic sign. We chose the semiotic approach to its ability to read characters as linguistic signs, open to interpretive reading and draw relationships at the level of the narrative language structure.

Keywords:

Ladies moon Narrative characters, Omani novel, semiotics, female writing.

Ummanlı Yazar Joukha Al-Harthi'nin Romanındaki "Seyyidâtü'l-Kamer" Anlatı Karakterleri, Göstergebilimsel Yaklaşım

Doç. Dr. Said Amouri

Tipaza Üniversitesi, Algeria

E-posta: said_amo@yahoo.com

Orcid ID: 0000-0002-5809-7023

Geliş: 23.10.2020 Kabul: 12.12.2020 yayın : 27.12.2020

Özet:

Arap feminist yazıları ve özellikle de Umman feminist yazıları, son yıllarda kurgu anlatımının zenginliği için bir model sayılır. Çünkü öncüleri, hikaye unsurlarını sanatsal bir kalıpta eriten yüksek tekniklerle, alıcı etkileşim imkanlarına sahip entelektüel bakışlar sunan kurgusal sanat oluşturma gücü kazandılar. Bu durum Umman feminist anlatımını Arap anlatısında ön plana çıkarır.

Bu, Ummanlı romancı Joukha Al-Harthi'nin Seyyidâtü'l-Kamer'inin karakterlerindeki çalışmamızı sunmak için önemli bir görüntüdür. Anlatı karakterlerini göstergebilimsel bir yaklaşımla sunuyoruz. Bu sayede anlatıya hakim olan görüşü tanımaya çalışıyoruz. Bu görüş, anlatı dilindeki işaretsel unsurlarla bir dizi biçimsel ilişkiyle belirlenen kurgusal karakterin, anlatıda dönüşüm geçiren göstergesel bir işaret olmasından hareketle, kadının anlatıcının kurgusal sesine bürünmesi vasıtasıyla entelektüel ve psikolojik durumlarını temsil etmesi yoluyla erkeğe dair bakış açısını sunmasıdır. Bunun için göstergebilimsel uygulama araçlarını etkisel örnekler gibi uygulamaya, anlatı dili düzeyindeki yüzeysel ilşkileri takip etmeye ve karakterlerin okunmasında derinleşmeye çalıştık.

Anahtar Kelimeler:

Seyyidâtü'l-Kamer, Göstergebilim, Karakterler, Feminist Roman.

تقديم:

تعد الكتابة عن الرواية العمانية من الصعوبة بمكان بالنظر لتطورها المتسارع وانفتاحها على عوالم الكتابة السردية المعاصرة، فكانت بحق أيقونة جديدة في سماء الرواية العربية، وفي رواية (سيدات القمر) للروائية العمانية جوخة الحارثي الصادرة عن دار الآداب العام ٢٠١٠. يستوقفنا سؤال كبير عن كثافة المواضيع التي تطرقها، والتي صاغتها بحيث تتمحور حول رؤى شخصية ساردة هي شخصية عبد الله، ومن خلال تلك الخصية طرحنا أسئلة منها:

- إلى أي مدى استطاعت الكاتبة توظيف الدال الاسم بحيث يتعالق دلاليا مع الموضوعات ويحرّك الأحداث؟
- هل يمكن قراءة الشخصية الروائية العمانية قراءة سيميائية تحيط بالشخصية في كونها الدلالي؟

للإجابة عن الإشكالية نقدم مقاربة سيميائية للشخصية المحورية في (سيدات القمر) شخصية عبد الله، وقد عبرنا إليها بتتبع عناصر نظرية عن تعريف الشخصية في السرد وفي الدرس السيميائي.

استعنا في مقاربتنا ببعض المصادر والمراجع السيميائية التي أفادتنا في مقاربة الشخصية. ونحن ندرك أنّ المقام لا يتسع للاستفاضة في مقاربة النص سيميائيا ولكنه إضاءة تقريبية للرواية العمانية المزدهرة وللروائية جوخة الحارثي في تجربتها الرائدة.

إنّ الحديث عن الأنثى الكاتبة أو الأنثى الساردة أو الأنثى الشخصية يتصل اتصالا وثيقا بتلك العلاقات الغامضة بين الأنثى والزمن الأنثى و المكان أو الأنثى واللغة بصفة عامة، إنها عصيّة على الفهم أو التحديد الموضعي، لكنها تخترق نظام اللغة ونظام الكتابة السردية لتعيش بين سراديب عناصر السرد، إنها تتعامل مع عناصر السرد بطريقة خاصة، تتعامل مع الأدب بطريقتها التي لا يمكن إدراك كنهها إدراكا تاما حقيقيا إلا بالاستناد على ما تقدمه المرأة من إشارات نهتدي بها لمحاولات البائسة للفهم وللتقريب، وكأنّ اللغة عند المرأة تعدت فكرة الحديث عن قشور النقد في ثقافة الرجل

وصراع المرأة بحثا عن وجودها في مجتمعاتنا خاصة، إننا أمام عالم جديد تكون فيه الهوية الأدبية‹ للمرأة شكلا من أشكال الحضور والتواجد الإنساني الحقيقي الذي يعزز كينونة المرأة ويغرس أظافره في لحمة هذا الوجود لتحقيق لذة الألم والتعريف بهذا الإنسان› (الشيدي، ٢٠١٠).

إنّ علاقة المرأة بالأشياء والتي تعكسها في كتابتها لا يمكن بحال أن تفهم إلا بانتهاج عصي الطرق العلمية والأدبية في تحليل اللغة السردية والأمر هنا للكتابة النسوية بصفة عامة؛ وذلك لاتصال المرأة الإنسانة بالأنثى الكاتبة في اللغة التي اتسمت بسمة الأنثى في صيغتها اللغوية، بيد أننا ندرك أن أيا من عناصر السرد سواء المكان أو الزمان أو الحوار أو باقي العناصر الأخرى في الكتابة النسوية، إنّما يمثّل عالم المرأة الحقيقي إنه عالم الهاجس والرؤية الفنية، ولا نقصد هنا بالحقيقة إشارة إلى الواقع أو الرواية الواقعية، ولكننا نتحدث عن الهاجس، ومن أجل ذلك طرح النقد النسوي عديد الأسئلة عن ميزات الكتابة النسوية، في كل إبداعاتها؛ فقد دعا أصحاب النقد النسوي الجينثوي من بين دعاويهم إلى‹ محاولة تحديد سمات لغة الأنثى ومعالمها أو الأسلوب الأنثوي المتميز في الكلام المنطوق (الحكي) والمكتوب وبنية الجملة أنواع العلاقات بين عناصر الخطاب وخصائص الصر المجازية والخيالية› (البازعي، ٢٠٠٥).

فالمكان مثلا في الرواية الأنثوية أو ما سمي بالرواية النسوية، هو الفضاء الذي تضفي عليه الأنثى من صبغتها فيصير إليها فضاء، والعلاقة تتجاوز الوجود الحسي المرتبط بزمن خطي إلى الوجود الهاجسي أو الذهني الذي يرسم وجود الأنثى، و المكان مثلا في السرد الروائي كما في خارجه لا يُفهم معناه إلا اذا امتزج فكريا بالآثار التي تتحين موجوداتها فيه، وفي الرواية النسوية بعامة نجد أن تعالق عناصر السرد بوجود الأنثى يُنشئ دلالات أغنى وأكثر كينونة لأن الأنثى ألصق بالمكان وبالزمان من الرجل، فالمكان هو الحامل الثقافي للوجود الأنثوي بكل ما في الكلمة من معنى الوجود والانتماء والهيمنة أو السيطرة وفيه وعليه تحاول الأنثى أن تجعله السكينة للمملكة التي يضاهيها وجود الرجل ، وبكل شراسة تحارب الأنثى لامتلاك المكان والانتماء إليه على اختلاف مفهوم الأمكنة في السرد بين الانفتاح والانغلاق.

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا أشرنا إلى أنّ الفكرة نسبية بين رؤية الرجل للمرأة في السرد أو العكس والدائرة تنفتح للحديث عن الصراع بين الكتابة الذكورية والكتابة النسوية، فتمثّلات المرأة في السرد الروائي عديدة تتصل في كل حالاتها بالجانب المعنوي للذات المخاطبة، وكثيرا ما نصادف المرأة في تمثّلات المكان مهما كان حيزه الجغرافي من بيت ومدينة أو وطن ونجدها كذلك في تمثّلات الرمز الأدبي الطبيعي وفي العلامة اللغوية وغيرها لأنها اصطبغت بصبغة الكتابة/ الأنثى العصية عن الانقياد والفهم.

١- في مفهوم الشخصية السردية:

عرفت الشخصية الروائية اهتماما كبيرا في النقد السردي العربي المعاصر، وارتبطت دراستها بالمناهج السردية العاصرة السياقية منها والنسقية، فهي(عالم معقد شديد التركيب، والشخصية كائن له وجود فيزيقي فتوصف ملامحها وقامتها وصوتها وملابسها وسحنتها وسنها وأهواؤها وهواجسها وأمانها وآلامها وسعادتها وشقاؤها) (مرتاض، ١٩٩٨).

وبالنظر إلى كون الشخصية في السرد العربي عالم قائم بذاته، وكيان حيوي في الرواية؛ فإنّها صارت تحدد الجنس الأدبي، والروائي يهتم بها بحياتها ووظائفها وعالمها النفسي وبتحريكها للأحداث، والراوي يقدم شخصياته الرواية في مسافة معرفة كاملة بها ويحاول تفعيل مشاركة القارئ في اكتشاف الشخصية والتفاعل معها وبناء علاقة قوية معها تصادمية أو توافقية أو غير ذلك.

تعد الشخصية أهم مرتكز يتكئ عليه السرد لما عرفه الأخير من تطور ارتبط بوجهات نظر تكوينية للشخصية السردية ولعلاقاتها بالعالم، ولأن الشخصية الروائية أكثر غموضا وعصية عن التحديد النهائي، فإن الأمر يبقى متعلقا بتبني مجال تعريفي محدد يكون قطب الرحى في محاور الدراسة؛ ذلك أن الشخصية-في عالم النقد -ذات "طبيعة مطاطية جعلتها خاضعة لكثير من المقولات دون أن تستقر على واحدة» فمنذ البدايات النقدية الأولى لتحديد شخوص عملية المحاكاة تعاطي النقد الأرسطي معها

من حيث إن رسم صورة الشخصية ترتبط بطبيعة الأحداث، وبقيت محل ترصّد لرسم علاقتها بالعالم عبر حقب زمنية شكّل السرد فيها جسرا ربط الإنسان بالعالم عبر متخيل أدبي.

لقد رفض نقاد البنيوية بصفة مطلقة اختزال الشخصية في السرد لرؤية سيكولوجية بحتة، يقول تودوروف "إن اختزال الشخصية في علم النفس ليس مبررا...لقياس اعتباطية هذا التحديد فلنتذكر شخصيات الأدب القديم والقرون الوسطى أو عصر النهضة. إن علم النفس لا يوجد في الشخصيات ولا حتى في المحمولات (صفات أو أحداث)" (تودوروف، ٢٠٠٥) بمعنى أنه –أي علم النفس- يكون أداة من أدوات التحليل ربما لا غنى عنها ولكنه ليس الغاية في فهم وتحديد علاقة الشخصية بالعالم؛ ذلك أن الشخصية هي قبل كل شيء كائنات على الورق أو لسانية التشكيل أساسا؛ أي إننا أمام لعبة حروف وكلمات متفق عليها لتأدية وظائف داخل السرد، أو هي عبارة عن تشكيل "يرتبط أساسا بالوظيفة النحوية التي تقوم بها الشخصية داخل النص، أما وظيفتها الأدبية فتأتي حين يحتكم الناقد إلى المقاييس الثقافية والجمالية" (بحراوي، ١٩٩٠).

أدخل البنيويون -بهذا التصور الجديد- الدرس اللساني في تحديدات الشخصية الروائية، واتصل ذلك بنسيج الوظائف المؤداة عبر مساحة السرد، ليتطور إلى التقاء الشخصية الروائية بمفهوم العلامة اللغوية عندما تتكاثف دوال متقطعة مكونة من العلامات والنعوت ومجموعة من المحمولات الدلالية المتفرقة، وتشكّل – عبر تواجدها في مستويات الخطاب- الشخصية دلاليا، ولإجراء التحليل يتعين هنا على الناقد العمل بإجراءات جديدة تعتمد على مستويات التحليل اللساني والسيميائي، من منطلق يعتبر الشخصية على اختلاف انتمائها إلى جنس أدبي ما (رواية، مسرح، حكاية،...الخ) عبارة عن «مورفيم فارغ في الأصل سيمتلئ تدريجيا بالدلالة كلما تقدمنا في قراءة النص» (بحراوي، ١٩٩٠، صفحة ٢١٣)، وبالموازاة مع سيرورة القراءة والبناء الدلالي للشخصية في الرواية، يفترض الشيء ذاته في سيرورة العرض السينمائي فتتشكل صورة الشخصية دلاليا عبر مجموعة أيقونات تؤلف وحدات علامية، تعبُر

مستوى التشكيل اللغوي إلى مستوى تشكيل أوسع، تتجمع فيه عناصر عبر لغوية في تناسق وتجاور بنيوي لأداء وظيفة دلالية للشخصية كما لعناصر السرد الأخرى كالزمان والمكان

٢-١ -الشخصية الروائية في الدرس السيميائي:

يرى **فيليب هامون** أنّ الشخصية في الرواية هي علامة يجري لها ما يجري على غيرها، وتحققها يكون داخل النسق العلاماتي، إنها كائن حي يتحرك ويتعالق داخل الكتابة السردية؛ فهي ليست مقولة أدبية محضة، ولا ترتبط بنسق سيميائي خالص مثل اللساني، لأنها تتمثل في أشياء أخرى كالمسرح مثلا، وهي أيضا ليت مقولة مؤنسنة تحيل على الإنسان بل إلى أشياء أخرى مجردة أو أدوات ينظر إليها في إطار محيطها التي تنتمي إليه، ولعل أهميتها في النص السردي -عند هامون- كونها التي يشيّد عليها العمل السردي، يقول (الشخصية بناء يقوم النص بتشييده، أكثر مما هي معيار مفروض من خارج النص) (هامون، ٢٠١٢)، والشخصية في السرد -عند هامون- تعتبر دليلا يتميز عن الدليل اللغوي اللساني، من حيث إنها ليست جاهزة، ولكنها تحول إلى دليل فقط ساعة بنائها في النص (لحميداني، ٢٠٠٠) بمعنى إن وجودها في النص يعد- حسب هامون- دليلا لسانيا يتحوّل إلى دليل أدبي بفضل القراءة التي يحتكم الناقد فيها إلى المقاييس الثقافية الجمالية.

إنّ الوجود اللساني للشخصية كدليل يعطي لدراسة الشخصية سمة الدراسة التأويلية، أو القابلية للتحليل والوصف بالاتكاء على عديد المعارف والمرجعيات، ويستوجب في دراستها وضعها في سياقها المعرفي أو الإحالي ووضعها في سياقها الشكلي في النص، ومن ثم فالقراءة تكون مزدوجة لكنها متكاملة لدراسة الشخصية، بمعنى قراءتها من جهة إحالاتها وما تدل عليه ومن جهة أخرى قراءة تموضعها في النص والعلاقات التي تبنيها كونها علامة.

٢-٢- تصنيف الشخصية الروائية عند فيليب هامون:

أ- الشخصيات المرجعية:

وهي الشخصيات المعروفة لدينا الموجودة في أذهاننا من خلال النصوص التي تناولت حياة هذه الشخصيات، فهي شخصية قد سبق المعرفة بها وقد تكون أسطورية أو مجازية (المحبة مثلا) أو اجتماعية وتحيل هذه الشخصيات كلها على معنى ممتلئ وثابت حققته ثقافة ما (هامون، ٢٠١٢، صفحة ٨)

ب- الشخصيات الإشارية:

يعرفها هامون بالعلامات التي تكشف عن حدود المؤلف أو القارئ وهي شخصيات من الصعب الإمساك بها أو تحديدها لأن الكاتب لا يشير إليها بطريقة مباشرة وإنما بطريقة تمويهية فالكاتب قد يكون حاضرا بشكل قبلي وبنفس الدرجة وراء (هو) و(أنا) وراء شخصية أقل تميزا أو وراء شخصية متميزة كثيرا (هامون، ٢٠١٢، صفحة ٢٠).

ت- الشخصيات الاستذكارية:

يقوم هذا النوع من الشخصيات على استذكار الماضي والاستشهاد بالأسلاف، ويرى أنّ بلورة نظرية عامة للشخصيات تتم انطلاقا من مقولة المعادلة والاستبدال والاستذكار (هامون، ٢٠١٢، صفحة ٢٥)؛ أي انطلاقا من فئة الشخصيات الاستذكارية التي يكمن دورها في ربط أجزاء العمل السري. وقبل أن نلج عوالم روايتنا سيدات القمر نؤكد على أن الكتابة النسوية العمانية تطورت في الآونة الأخيرة تطورا ملحوظا راسمة مكانا متقدما في عالم الكتابة النسوية.

٢-٣- عالم رواية سيدات القمر:

تدور أحداث رواية "سيدات القمر" في فضاء يمتزج فيه التاريخ العماني الحديث برائحة الأرض التي تحكي كل حبة تراب فيها قصة من طلعت عليهم الشمس العربية الأصيلة في مزارع العوافي وطرقات عبري ومسقط، وكل ما في عمان من تركيب إنساني تتحرك فيه مشاعر الناس على طبقاتهم بين سيد ومسود، رجل وامرأة، صبي

وبنت، حكاية المجتمع العماني الحديث المتمسك بثقافته يأخذها في ذاكرته أينما حل وارتحل، حكاية مجتمع يتطوّر ويتمدّن ولا يواكب سرعة العصر إلا شكلا؛ لارتباطه السحيق بالإنسان العربي العماني النمطي الذي يتغلغل في لاشعور النفس فيتمثّل في تصرفات تقيّدها التقاليد والأعراف، ويتمثّل في ذلك اللغط الناقد لسلبيات المدنية الحديثة الأمر الذي يجعل من العماني في الرواية يعيش زخم المدنية بعمق التقاليد المتوارثة.

إن أحداث (سيدات القمر) تعتمد على السرد الاسترجاعي الذي تتعرى فيه الحواري والبيوت في العوافي والأسواق والمدرسة، وتتحرك فيه شخصيات المدينة الزراعية ويرتسم فيه مسار تاريخي سِيَري لشخصية عبد الله بعيني عبد الله ذاته في فضاء مكاني محدود المعالم هو الطائرة التي تقله إلى فرانكفورت الألمانية، ولأنّ المكان المنفتح على سرد الاسترجاع وهو الطائرة وهو فضاء مكاني مغلق؛ فإنه الذي فتح نخروب الذاكرة والانكفاء على الذات تسترجع الأحداث منذ البدء، تتبع سيرورة ميا زوجة عبد الله، وأولاده (لندن الطبيبة، وسالم، ومحمد المريض بالتوحد) بل تتبع سيرورة الحب والحلم، وصيرورة الحياة في العوافي خاصة، بكل زخم الطفولة وملاحظات البراءة لأسرار الكبار. عبد الله ابن التاجر الثري سليمان، لم ير أمه فقد ماتت وتركته يبحث وراءها عن قبس يهديه إلى حقيقة موتها، وبين بحثه الدائم في عيون الناس حوله وسؤاله الدائم تتكشف حقيقة مقتلها من عمته، لكنه عاجز، ضعيف ورث عنها ضعفها واستكانتها ولعلها التي أورثته ضعف شخصيته وأحلامه. وهو الذي جاء بعد انتظار طويل جاء لتموت أمه من دون أن يعرفها وكانت ضحية الحسد وضحية التفكير السحري التقليدي الشعبي المتوارث الذي يغلّف أسوا جرائم المجتمع التقليدي.

٢-٤- السرد والسنن في سيدات القمر:

السرد في الرواية اعتمد في رؤيتين، الراوي العليم بضمير الغائب، وفي -مجمله- اعتمد على (الرؤية مع) وهو السرد الذي يتكئ على ضمير الأنا، وفي نصّنا السردي نجد (عبد الله) اعتمد على الذاكرة في استرجاع الأحداث وإعادة قراءتها وتفحّصها

وسؤالها، ومحاولة فهم ألغازها بتقمص حالات نفسية والده التاجر سليمان الذي عشّش في لاشعور عبد الله، كما رأى بمنظاره الحالات النفسية والفكرية لكل شخوص الرواية المحبة والحاسدة والمبغضة والحالمة، يرى بعينه سير التاريخ الإنساني ممثلا في حياة والده التي تمتد إليه وإلى أبنائه. يراها في نفسه العاجزة في كل حالاتها، و التي لا تعرف التمرد على الأبد- هذه في نظرنا العقدة الأساسية التي ربطت خيوط النص- وترفع راية الانهزام والتبعية التامة الكاملة، طاعة متوارثة، وانكفاء على الذات، وتواكل مطلق على الأب (ولكنني كالعادة لم أناقشه) (الحارثي، ٢٠١٠)، ذلك الأب الذي جعل من عبد الله فارغا مجوفا مقيد الإرادة يعيش في أحلامه البعيدة عيشة تقهرها السلطة الأبوية التي انتقلت من طفولته لشبابه لزواجه لأبنائه، قالت له زوج عمه يوم ولدت له ابنة سمتها زوجته لندن (وقفت امرأة عمي في حوش بيتها المصبوب بالإسمنت في وادي عدي، وضعت يديها على وسطها وصاحت في وجهي: "تربية أبوك المتسلط لك سحقت شخصيتك، مالك شور في اسم بنتك؟ .. لندن؟ .. هذا اسم هذا؟ ..شفت أحد يسمي بنته العوافي أو مطرح أو نزوى أو وادي عدي؟" (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ٢٤) ولعل ضعف شخصيته التي لازمته طول عمره قابلتها جرأة ابنته لندن التي تقول له بكل صراحة وصرامة:(تقول لي: "سلبي..أنت سلبي يا أبي..").

لكن السلبية وفقدان الثقة في النفس إحساس عاش جنبا إلى جنب حياته الرتيبة التي يعتبره الناس فيها محظوظا لأنه غني وابن تاجر، لكن ذلك جعل منه انسانا رتيب فارغا مجوف النفس والروح يصيح بلا صوت، يقول (رجل سعيد يقود سيارة أبيه إلى بيته، حيث المرأة التي يحبها، وطفلتهما، وأبوه. هذا ما كنته، مجرد رجل سعيد، شاب لم يكد يتخطى العشرين من عمره ولا يفكر في الحلم بأبعد مما هو بين يديه، بل يخاف مما هو بين يديه.) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ٦٠)

لكن حالة العجز التي في شخصية عبد الله، التي جعلت من صياحه صامتا، ومن قوته ظلما لنفسه، تمظهرت في الرواية بصورة واحدة، تمرد واحد رسم صورة نهاية مفتوحة للرواية، إنها علاقته بابنه المريض الذي لا حول له ولا قوة، تلك النهاية التي أرادها عبد الله نهاية لابنه الذي أتعبه، أرهقه، جعله متمردا ثائرا، عبد الله جمع كل

انهزامات الحياة ليثأر من ابنه المريض؛ لأنه أمام ابنه بلا خوف، الموضع الوحيد الذي لا خوف به هو ابنه محمد مريض التوحد، انفجر في وجهه أراد التخلص منه ليتخلص من عجزه ليثأر مرة وينتصر على نفسه، على روح أبيه التي ترافقه، تهمس في خياله، تلسع روحه، وتسري في دماه.

إنّنا لا نعتبر الرواية التي بين أيدينا سيرة ذاتية لعبد الله ولد التاجر سليمان أو وثيقة تاريخية لأسرة عمانية مخضرمة عاشت البساطة التقليدية بكل تفاصيلها وطقوسها، كما عاشت المدنية المفرطة الآلية، لكنّنا نعتبرها السرد الواقعي محمّلا بفضاءات التخييل السحري.

والرواية إذ تطرح على بساط أحداثها مواضيع العبودية والمقاومة والتحول المجتمعي للعمانيين في عصر البترول، والتعليم، والطقوس السحرية والتمائم.. وغيرها؛ فإنّها تجعل من موضوع الفكر التقليدي الأخلاقي القار في نفوس العمانيين محور ذلك الطرح، يجمع إليه كل تلك الموضوعات الجانبية التي تعتبر مسننات أيديولوجية، متمثلة في سلوكات الجيل الثالث (أبناء عبد الله) وأحلام الجيل الثاني (جيل عبد الله ابن التاجر وزوجته ميا وأخواتها، والعبد سنجر وزياد)، وصرامة الجيل الأول (التاجر سليمان والشيخ سعيد والمهاجر وغيرهم) كما أن هذا الموضوع هو محور تحليل الموضوعات -التي نعتبرها جانبية- تُجلى شيئا من خفايا الأسرار التي يُشكل فهمها عن القارئ غير العماني فتنفتح القراءة وتتعالى إلى فضاءات التلقي.

إنّ إدخال موضوعات التأريخ العماني والمقاومة في الجبل الأخضر، ومعاهدات تحرير العبيد وانتقال الإمامة إلى سلطنة وغيرها من مواضيع تجارة العبيد والقرصنة، يعتبر في السيميائية المعاصرة مسننات تأويلية تعمل على توجيه القراءة وتعمل على تحديد مسار السميوزيس التأويلي، لكنها تقع في مسافة الصراع بين مقصدية الكتابة ومقصدية القراءة؛ ذلك أنّ مثل تلك الموضوعات تمثل مخارج أيديولوجية تشتغل في مساحة التجاذب التأويلي بين فعل القراءة وبين الفعل الكتابة، ويمكن اعتبارها أسنانا تأويلية تعمل على تخريجات للمعنى في النص، ذلك أن السنن كما يراه

بارث Barthes هو "وعد بإحالة، إنه بنيات من سراب، إننا لا نعرف عنه إلا نقطة انطلاقة ونقطة عودة. إن الوحدات الناتجة عن السنن-تلك التي نقوم بإحصائها-تشكل في حد ذاتها مخارج للنصوص، إنها سمة ونقطة للانزياح المحتمل عن السجل، إنها شظايا لهذا الشيء الذي سُبق وأن قُرأ ورُؤي وعيش. إن السنن هو الآثار التي تدل على شيء سابق" (بنكراد، ١٩٩٦)، ومن ثم يعمل على تحديد طبيعة العلاقة التي يقدمها النص السردي بين النص كشكل تحقق تصدر من الإنسان، وبين تصور الإنسان وفهمه للكون من خلال تحيين المعنى في شكل مادي لغوي.

إنّ السّنن في مجمل تعاريفه لا يخرج عن إطار كونه "مجموعة من الرموز أو العلامات المنظمة بدقة وصرامة لترجمة نص أو إرسال رسالة"، وفي النصوص الأدبية يشتغل على مساحة البنية اللغوية في تمكين معالم فعل التلقي.

إنّه الإحالة إلى المعنى وإلى النسق، لأن الأيقونات والأشياء الخارجية لا ينظر إليها إلاّ ضمن نسق ما، يؤطر حالة الإدراك الذي ينتمي إليه السنن، والكتابة كتمثيل أيقوني تشتغل وفق سنن أيقوني يحدّد درجة التماثل والتشابه بين النمط الأصل وتحيينه الأيقوني، ومن ثم يحدّد السنن نمط إنتاج وإعادة إنتاج عناصر التجربة الواقعية.

إنّ عالم **سيدات القمر** - الكثيف- بتفاصيله المتناهية في الدقة يقسم الرواية إلى قسمين كبيرين، أولهما التفاصيل الدقيقة الكثيفة للشخصيات وللفضاءات الجغرافية في العوافي، والثاني تجميع لخيوط التفاصيل، ولانّ المقام لا يتسع للأمر هذا فإنّنا نقول إن هذه التقنية المقطعية التفصيلية تستلهم التقنية السينمائية المعتمدة على التفصيل ثم التجميع.

٣- شخصية (عبد الله) بين التشكيل اللساني وانفتاح التأويلية:

نحاول في قراءتنا السيميائية لشخصية عبد الله الانطلاق من محاور سيميائية قدّمها في شكلها النظري فيليب هامون، هي الدال والمدلول؛ والبحث في العلاقات التي تبنيها الشخصية/ العلامة، يفترض قراءة عميقة للسياق الذي ترد فيه بكونها الدلالي؛ لأنّ(الشخصية علامة إنسانية تخضع المزدوج وتندرج في شبكة العلامات السياقية، لها

وجه دال ووجه مدلول) (رقيق، ١٩٩٨) ووجودها اللساني في السرد يجعلها وحدة دلالية(قابلة للتحليل والوصف وليس كمعطى قبلي وثابت) (بحراوي، ١٩٩٠) ، من هذا المنطلق نقرأ شخصية عبد الله الساردة بين ضمير الأنا وضمير الغائب. نقرؤها كونها دال لساني من جهة، وبالنظر للسياقات الواردة فيه نقرؤها دلاليا، ومن ثم نحاول قراءة العلاقات التي تبنيها.

٣-١- **الشخصية دال**: إنّ ما يركّز السيميائي **هامون** عليه هو كون الدال (الاسم) يدخل في علاقة قوية مع المدلول، فقد يكون للشخصية اسم وظيفة او حرف صوتي فقط أو غيرها، لكنّنا نرى أنّ الروائية قدمت الشخصية الرئيسية هنا باسم (عبد الله) وفيه نقرأ:

- **الخاصية النحوية**: إنّ التركيب الاسمي (عبد الله) يعتمد اسم الجلالة مضافا إلى (عبد) وبغير المضاف اليه لا قيمة تعريفية للاسم المضاف، والامر هنا يتعلق بالاسم (عبد)، فالرباط هنا واجب، قال ابن جني: (فكلما ازداد الجزءان اتصالا، قوي قبح الفصل بينهما) فالتركيب الدال (عبد الله) لم يكن -في اختيار الروائية- اعتباطيا، ونقرأ دلالته بعد وصفه النحوي كما يلي.
- **الخاصية الدلالية**: إنّ الاسم (عبد الله) كونه السارد الأساسي في الرواية، وكونه يعاني عقدة الأب والسيطرة والبحث عن الذات ويعاني رؤية الناس المنتقصة له وذوبان شخصيته في جلباب أبيه، جعلت من الانفصال عنه عقدة القصة الأساسية. وقد انعكس ذلك تماما في اختيار الروائية للاسم (عبد الله) وهو تركيب تعريفي – كما أسلفنا- تلغي الانفصال فيه قيمة المضاف، والشخصية هنا – على مدار الفضاء السردي- لا قيمة لها دون وجود الأب، ومرّ ذلك بفترتين: قبل وفاة الأب، وبعد وفاته.

-**قبل وفاة الاب**: إنّ شخصية عبد الله الطفل في الرواية تكونت بالقالب الذي أراده له أبوه (التاجر سليمان) وقد كان كثير الالتصاق به، يرى بعينه ويمشي بخطواته، حتى أن التاجر سليمان لم يعمل على زرع الثقة في نفسية الطفل لبناء شخصيته، ومظاهر ذلك كانت **اسمه** (الملغى) **وتربيته القاسية، والعالم من حوله**، وهي عناصر وسعت من دائرة فقدانه لشخصيته وعملت على رسم النهاية المفتوحة للرواية:

* **الاسم عبد الله**: ربما لو عملنا استقصاء عدديا لجملة يا ولد (أكثر من ١٥٠مرة) لكننا نركز على نموذج واحد يصور الصراع الذي بين عبد الله الابن وبين أحلامه التي لا تتحقق، في حوار الأب قلت له: أبي صاح بي: (يا ولــد.. يا ولــد"، كنت أبا لثلاثة أطفال، لم أكن ولــدا...) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ٩)، وعلاقة الابن عبد الله بأبيه علاقة تبعية مطلقة وذوبان كامل تام، وذلك هو محور الصراع في الرواية. حتى الزوجة لم تكن تناديه باسمه (قلت لها: "يا ميا" قالت لي: "يا رجل". "يا رجل". "يا رجل".) ولعلنا لا نحتاج إلى شرح وتأكيد حجم الانهزام وقسوته التي تعاني الشخصية منه بين نار قسوة الأب وضياعه في حب من طرف واحد هو حبه لزوجته التي لم تناده باسمه. ولو أردنا تأكيدا لذلك لربطنا بين التركيب اللساني عبد الله الدال على العبادة المطلقة والتبعية التامة لله، وهو الربط الذي سمّاه السيميائيون بـ (التشاكل) بما أقرّه عبد الله في ذاته من خلال رسائله إلى أبيه التي يقر له فيها بالعبودية، والتي امّحى متنها من ذاكرته التي لم تحتفظ إلا بألفاظ التبعية المطلقة (وكتبت له بعد أيام رسالة ابتدأتها كما جرت العادة بعد البسملة بقولي: "إلى سيدي ووالدي العزيز الأجل الأكرم"، وختمتها بتوقيعي: "خادمك وابنك المنتظر عطفك: عبدالله"، نسيت متن الرسالة الآن) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ٢٥)

* **التربية القاسية**: ربّى التاجر سليمان ولده عبد الله على قسوة مفرطة بين ضرب وإهانة وحرمان وتدلية في البئر، أثّر كثيرا على طفولة رُسمت بألوان باهتة صفراء شاحبة فاقدة لروح وللشخصية فنجده كثيرا ما يذكر حبل الليف الذي علّق به في البئر، فالأب كان يدلي ابنه في البئر عقوبة له، (نكسني أبي مربوطا في البئر عقابا لي، ونمت شديد العطش، بعد كوابيس كثيرة، رضيت مسعودة أخيرا أن تحكي عن أمي). ويحرمه من مصروف المدرسة التي كان يأخذها حتى أبناء الطبقة العادية (ولم يسخر مني أحد لكني أحسست بالخزي والعار وتمنيت لو كان أبي مزارعا كمعظم الآباء. وفي الفسحة كنت وزايد الولــدين الوحيدين في الصف اللذين لم يذهبا للمقصف، كان كلانا لا يملك مصروفا، أبي لم يقتنع قط – حتى وصولي للإعدادي- أن عليه أن يعطيني مائة بيسة كل يوم من أجل المدرسة، وحين حصلت عليها أخيرا في الإعدادي كان الناس

يعطون أولادهم مائتي بيسة أو ثلاثمائة، كان عليَّ دائما أن أختار بين الخبز والجبن وشراب السن توب، ولم أستطع الحصول عليهما معا حتى أنهيت الثانوية.) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ٣٧) . هذه الطفولة جعلت من شخصية عبد الله تتشاكل مع اسمه في معنى العبودية المطلقة لأبيه.

بالإضافة إلى الضرب المبرح والقسوة نأخذ نموذجا أقسى من الضرب هو الاهانة في المقطع التالي (أعطوني شهادة الثانوية في حفل التكريم. في المساء أريتها أبي وأنا ألهث. ضحك وقال: ولهثت هكذا مثل الكلب أمام الناس؟ .. لن تنفعك هذه القرطاسة ينفعك هذا"، وضرب جيب دشداشته. ضحك. ضحك. ضحك.) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ١٦).

تمتد قسوة الأب مع عبد الله إلى كبره وزواجه (أرجوك يا أبي أريد أسافر مصر أو العراق أدرس في الجامعة"، فشدَّني من رقبتي وصرخ: "وحياة هذه اللحية ما تطلع من عمان.. تريد تتسفل؟ وترجع من مصر والعراق حالق لحيتك تدخن وتشرب؟.."، واشتغلت في تجارته بعد الثانوية مباشرة لكني لم أنتقل تماما لمسقط حتى توفي) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ٨).

* **العالم حول الطفل ألغى شخصيته**: نجد في مواضع كثيرة حوارات لا يذكر فيها اسم (عبد الله) فالعالم من حوله (الأب، الزوجة، أم الزوجة، زوجة العم، .... الخ) لا يعترف بشخصية التي ألغاها أبوه ولم يستطع هو بناءها أو إرجاعها فانساق العالم من حوله في رسم الصارة الملغاة بألوان الضعف والاستهزاء وبرز ذلك بداية بزوجته (لماذا أرسلت لي ولد التاجر سليمان) و(اسمع يا رجل)، وحين قالت له معاتبة (قبل ذلك بأعوام قالت لي:" ألا ترى أنك تبالغ في احترام والدك؟) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ١٥) وكذلك أم زوجته (ولد التاجر سليمان يخطبك)، وعدم قدرته على تسمية ابنته وهذا في نظر العالم حوله ضعف بيّن (امرأة عمي في بيت وادي عدي القديم وقفت في الحوش وعنفتني بأعلى صوتها: "لندن؟ ووافقت؟ ما لك شور في اسم ابنتك؟..") (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ٧)، وكذلك حين قالت ظريفة الخادم لما سمّت ميا ابنتها باسم غريب

عن أهل العوافي (تمتمت ظريفة: "الله يرحمها، كانت في حالها، ناقة الله وسقياها، لكن الناس ما ترحم، وهذا عبد الله طلع عليها لا في العير ولا في النفير، شيء رجل يخلي امرأته تسمي بنته هذا الاسم الغريب؟ ..لكن كيف أتكلم؟ .) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ٣٢).

- **بعد وفاة الأب:**

بعد وفاة الأب أو أثناء وفاته، نجد عبه الله تائه بلا روح وكأن موت الأب – الذي كان سببا في إلغاء شخصيته- هو موته (عشت طوال هذه السنوات الست في رعب متصل من فكرة موته، وحين مات أحسست أنه فعل ذلك مرارا من قبل لدرجة أن موته لم يرحمني ولم يزحزح رعبي. في الأسابيع الأولى التي تلت موته لم أستطع النوم من شدة الغضب، كان الغضب يتسلل مثل عود ثقاب في دمي ويحرقني) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ٩٩).

وقد تمظهر خوف عبد الله وعجزه في إقراره بعجزه حتى في لحظات غضبه الذي كان قبل الأب ولازال بعده (. نفس الغضب العاجز الذي شعرت به حين أزالت الممرضة الأنابيب عن جسد أبي لتعلن وفاته، الغضب الذي جعلني أصرخ بلا صوت وأبكي بلا دموع. لكنه غضب عاجز، كل ما يفعله هو منعي من التنفس.) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ٣٠).

شخصية عبد الله ترافقها روح الأب في همساته ولمساته وأوامره، مما يجعل من موت الأب أمرا شكليا فقط، هذا ما أكده عبد الله حينما ماتت الخادم ظريفة (. شعرت بأن أبي سيعاقبني على تركها تموت بعيدة ووحيدة بتنكيسي في البئر مربوطا بحبال الليف.) بل وصل أمر الخوف حتى في أحلام عبد الله الذي كان يرى أباه في منامه (رأيت أبي في المنام محمر العينين من شدة الغضب، رأيته يلوح في وجهي بحبل الليف وهو يسألني عنها.) والأكثر من هذا أن روح الأب التي تغلغلت في روح عبد الله جعلت من حركاته وسكنته تتحرك بإرادة الأب المتجسدة في عبد الله يقول عن ابنه سالم (أردت أن أصرخ في وجهه أكثر، لكني لم أتعرف الصوت الذي خرج مني، لم

يكن صوتي. كان صوت أبي في عتمة باب بيته يلكم وجهي ورأسي.) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ٥٠).

إنّ صورة عجز عبد الله وانتكاساته رافقته منذ الطفولة إلى باقي حياته، ولعل لحظة وفاة والده في المستشفى؛ قطعت تنفسه وكتمت صراخه، ذلك الصراخ الصامت الذي لم يخرج إلاّ مرتطما بجدران البئر في صغره منكسا في البئر (الصراخ، هذا ما فعلته ظريفة حين أسلم أبي الروح في مستشفى النهضة، هذا ما لم أفعله قط إلا منكسا في بئر.) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ٧٤).

٣-٢- الشخصية المدلول:

ندرس في هذا العنصر العلاقة التي بين الشخصية عبد الله مع السياقات التيمية التي قام النص بتأثيثها لبناء عالمه، وهي تيمات تلامس عديد المظاهر الحياتي للمجتمع العماني المكثف في مدينة العوافي بخاصة وغيرها مما يرسم عالم العمانيين برؤية الكاتبة.

نحاول هنا أن نطبّق سيميائيا الترسيمة العاملية لغريماس؛ حيث الأفعال في السرد لا تؤديها بالضرورة الشخصيات. استفاد(**غريماس**) في تحديده لمفهوم العامل من الدراسات الميثولوجية التي فرقت بين التحليل الوظيفي(الأفعال) والتحليل الوصفي (الألقاب والمظاهر الوصفية)؛ حيث رأى أن هناك تكاملا أساسيا بينهما، كما أفاد من أعمال (بروب)في دراسته للحكاية الخرافية، ولاحظ أنّ هذا الباحث أوضح مفهوم العوامل دون أن يضع بالضرورة المصطلح نفسه، وخاصة عندما وزع الوظائف المتعددة على سبع شخصيات، وهي التي اعتبرها بمثابة عوامل، ورأى **غريماس** أنّه إذا سّلمنا مع **بروب** بأنّ الحكاية هي تتابع لحدود ثلاثين وظيفة، فإنّ ذلك يفترض حتما التساؤل حول ماهية الوظيفة، يقول "فإذا وضعنا ثقتنا في حدس **بروب** حين يعتبر الوظائف بأنها تعطي دوائر أفعال شخوص القصة، فإن الصيغ التي تعطيه الوظائف مختلفة توقعنا في أغلب الأحيان في حيرة؛ فإن كان رحيلا لبطل يبدو وظيفة تتطابق مع نوع النشاط، فإن النقص Le Manque لا يمكن اعتباره وظيفة." (غريماس، ١٩٨٨)،

وبعيدا عن أن يكون فعلا فهو يعيّن حالة Etat، ويقترح غريماس في هذا الشأن نموذجا موازيا للتحليل أسماه **النموذج العاملي** model metontiel يقوم على ستة عوامل تأتلف في ثلاث علاقات، ويعتبر **غريماس** العوامل كائنات وأشياء؛ فليس من الضروري "أن يكون العامل شخصا ممثلا، فقد يكون مجرد فكرة، كفكرة الدهر أو التاريخ، وقد يكون جمادا أو حيوانا..الخ" (لحميداني، ٢٠٠٠، صفحة ٥٢) وتصنف العوامل ضمن ثلاث ثنائيات:

-الذات/الموضوع: وتجمعهما علاقة اللذة أو الرغبة؛ أي بين من يرغب (الذات) أو(الفاعل) وبين مرغوب فيه (الموضوع) وهذا المحور الرئيسي يوجد في أساس الملفوظاتEnoncés وفق نمطين:

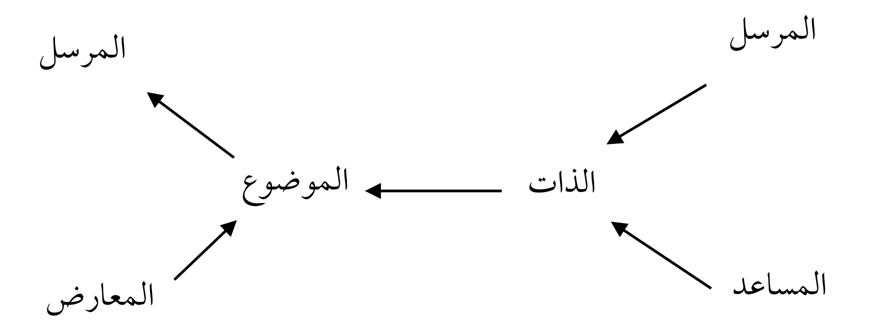
* ملفوظات حالة: تحدد وضعية التواصل بين الذات والموضوع؛ فإما أن تكون في حالة اتصال وتسعى إلى الانفصال وتجمعهما علاقة اللذة أو الرغبة؛ أي بين - : الذات /الموضوع من أو العكس.

* ملفوظات إنجاز: وتعمل على تطوير الحكي والانتقال من حالة إلى أخرى، ويقود التوالي بينهما إلى حدوث تفاعل بين مختلف العوامل:.

-المرسل/المرسل إليه: Destinateur/Destinataire وجود هذه الثنائية إحالة على وجود منظومة من القيم تحكم منطق الأفعال؛ فوظيفة "المرسل تتمّثل في المحافظة على هذه القيم وصيانتها وضمان استمرارها، وذلك بتبليغها إلى المرسل إليه» وتأتلف هذه الثنائية في علاقة التواصل التي تمر حتما بعلاقة الرغبة؛ إذ إنّ المرسل" هو الذي يجعل الذات ترغب في شيء ما، والمرسل إليه هو الذي يعترف لذات الإنجاز بأنها قامت بالمهمة بأحسن وجه» (لحميداني، ٢٠٠٠، صفحة ٣٦)

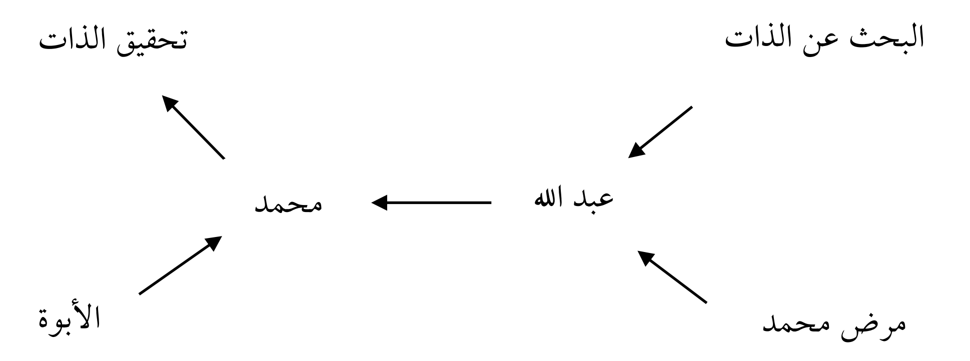
- المساعد / المعارض Adjuvant / Opposant: تأتلف في علاقة الصراع، وتتحدّد وظيفة المساعد في تقديم العون للفاعل أو الذات بغية تحقيق مشروعها لعمل يوال حصول على طلبته، فيما يقوم المعارض حائلا دون تحقيق الفاعل طلبته وعائقا

في طريقه» (شعلان، ٢٠٠٣) ومن خلال ائتلاف العلاقات الثلاث نحصل على هذه الصورة الكاملة النموذج العاملي:



إن النموذج العاملي من خلال الترسيمة لا يمكن أن يكون إلا نسبي التحقق على اعتبار حالات الصراع الإنساني ونشاطاته التي تبقى نسبية بالنظر إلى كون الفكر ينتفي والنمطية وحالات النمذجة؛ فكل حالة تقدمها الترسيمة العاملية يمكن أن تحدد مقطوعات سردية بعينها أو تكشف عن مستوى العلاقات التي بينها بهدف تفكيك شبكة العلاقات التي تحم عناصر الحدث في النص السردي بيد أنها لا تتمكن من التقديم النهائي النمطي لشبكة العلاقات. ومن هذا المنطلق نعتمد على كون الترسيمة عامل مساعد لفهم التسنين الأيديولوجي في السرد من خلال مقاربة نمطية لشخصية عبد الله وتمثيل صراعات الأيديولوجيا في السرد.

نبدأ أولا بطرح النموذج السيميائي المقترح:



إن شخصية عبد الله بضعفها وانهزامها وذوبانها في شخصية الأب الذي انتقل بعد موته إلى أحلام وآمال وتصرفات الابن عبد الله، فأحالها صورا باهتة لشخصية فقيرة مجوفة خائفة منهزمة، وكما أسلفنا أن لحظة القوة الوحيدة عند عبد الله هي في علاقته بابنه محمد المريض بمرض التوحد. تلك العلاقة التي تجلّت في هذا الحوار الرائع (وأنا انهلت عليه بالضرب مرددا: "فضحتنا، اسكت". أخذ أبي السوط من يدي، ورماه في البحر، قلت له:" لكنك ميت، كيف عدت؟ فمضى ولم يلتفت، صحت فيه: "خذه معك، خذ محمدا معك يا أبي".) (الحارثي، ٢٠١٠، صفحة ١٢٢) . إن الابن المريض محمد مار يمثل الموضع الوحيد الذي يستطيع عبد الله هزمه لأنه يرى نفسه فيه يريد أن ينهي حياته إلى الأبد فتجلى له أبوه ليرفع عنه آلة التعذيب في إشارة راقية من الكاتبة إلى أنّ موت الابن هو موت حقيقي للتاجر سليمان وهو الحياة الجديدة لإنسان جديد تخلص من عجزه هو عبد الله، (حملت محمدا بين ذراعي، وفكرت إنه مثل السمكة، اقتربت من البحر الهائج، وغصت فيه حتى صدري، حين فتحت ذراعي انزلق محمد مثل السمكة، ورجعت دون أن أبتل.) (الحارثي، ٢٠١٠) وهنا نفهم مباشرة تخلّص الأب عبد الله من ابنه المريض محمد الذي يرى نفسه فيه أراد أن يتخلص من نفسه المريضة، وكما رحل الأب إلى البحر أراد أن يغرق معه محمد المريض أو عبد الله الماضي والحاضر.

إنّ الترسيمة العاملية تؤطّر علاقة الذات (عبد الله) بالموضوع (ابنه المريض محمد الذي ضربه بالسوط وتخلص منه في البحر). والمرسل للذات في الترسيمة هو البحث عن الذات الضائعة منذ الطفولة، وهو الحافز على تحقيق فعل التخلص من الابن محمّد، ليحقّق ذاته (المرسل إليه) وقد حققها (فقد خرج من الماء من غير أن يبتل).

محور المساعد في الترسيمة الأنموذج يتمثّل مرض الابن لأنه لا يملك قوة فيكون هو المساعد للذات على إنجاز الفعل، أما المحور الأخير المتمثّل في المعارض فهو أو المعيق فهو إحساس الأبوة الذي استطاع التغلب عليه من خلال صورة الأب المتمثلة أمامه.

خاتمة:

نصل في ختام المقال إلى نتائج تتعلق بالمنهج من جهة ومن جهة أخرى تتعلق بالشخصية في رواية سيدات القمر وهي:

- مكّنت المقاربة السيميائية من قراءة الشخصية السردية في شكلها الدال والمدلول: فمن حيث كونها دالا فالشخصية علامة مفتوحة التأويل وبالتالي فإن حقيقتها تتشكل بالنظر إلى العلاقات التي تُنشئها والدوال الاخرى الوحدات اللغوية او عناصر السرد.
- الشخصية كمدلول ظهرت -من خلال تطبيقات النموذج العاملي- في مستوى العامل ومن ثم فإن دورها توافق مع عناصر السرد في تأثيث المعنى.
- الرواية العمانية من خلال مدونتنا، متطورة ومزدهرة وتمثّل عالما تواصليا فتح الحياة العمانية وصورها بتفاصيلها ونقلها إلى حدود كبيرة بخاصة في الوطن العربي وتم ذلك من خلال السرد النسوي الدال على رؤية خاصة من الكاتبة ومنظار فكري خاص لها، تمثل في قدرتها على تصوير كل من شخصية الرجل وشخصية المرأة بذات ساردة مخالفة أي رؤية المرأة للرجل والعكس.

المراجع

جوخة الحارثي، سيدات القمر، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠١٠.

حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي،المركز الثقافي العربي ، بيروت /الدار البيضاء، ط١٩٩٠،١.

حميد لحميداني، بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت –الدار البيضاء، ط٣ ٢٠٠٠.

سعيد بنكراد ، النص السردي: نحو سيميائيات للأيديولوجيا، دار الأمان، المغرب، ط.١، ١٩٩٦.

عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية- بحث في تقنيات السرد- دار الغرب للنشر، الجزائر ١٩٩٨.

عبد الوهاب الرقيق، في السرد، دار محمد علي الحامي، تونس ١٩٩٨.

تودوروف تزفيتان، مفاهيم سردية؛ ترجمة عبد الرحمان مزيان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٥.

فيليب هامون، سيميولوجية الشخصيات السردية، تر سعيد بن كراد، دار الكلام الرباط.

غريماس، السيميائيات السردية، المكاسب والمشاريع، ترجمة سعيد بنكراد، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، ١٩٨٨، عدد ٩١٨.

شعلان عبد الوهاب، القراءة المحايثة للنص الأدبي، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، عدد ٣٨٣، ٢٠٠٣، ٢٠٠٤/٠٤/٠١:

www.awa_dam.org/mokifadaby/ind_mokif38342004